دموع من رمال

د. ميسون حنا

د. ميسون سليمان حنا

دموع من رمال

(مجموعة قصصية)

٢٠٢٠

التصنيف:

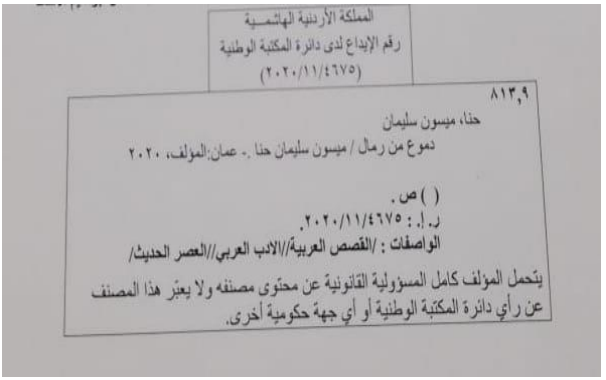
المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠٢٠/١١/٤٦٧٥)

٨١٣,٩
حنا، ميسون سليمان
دموع من رمال / ميسون سليمان حنا .- عمان:المؤلف، ٢٠٢٠
( ) ص .
ر. إ. : ٢٠٢٠/١١/٤٦٧٥.
الواصفات : /القصص العربية//الادب العربي//العصر الحديث/
يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

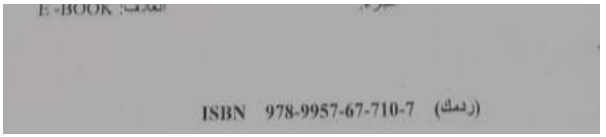
E-BOOK
ISBN 978-9957-67-710-7 (ردمك)

كافة الحقوق محفوظة للمؤلفة

❖ التنسيق والتنضيد والإخراج: الروائي محمد فتحي المقداد

المهمّشـــون

المهمش الأول

كنت في ذلك اليوم أشعر ألما في معدتي، لا أشكو القرحة، ولا إلتهاب المعدة، ولا سوء الهضم، إذ لا يوجد هضم إطلاقا.... هو الجوع إذن الذي يحثني لأثور على واقعي، وأقتنص سانحتي ، وأحصل على ما يسد رمقي، لكن كيف وأنا أفتقد هذه السانحة التي لا تأتي، علما بأنني لا أسرق، ولا أتسول، ولكني كذلك بلا عمل، وكوني باطلا عن العمل إلا أني لست متسولا كما سبق وقلت، ولا إتكاليا، ولا متسلقا على أكتاف الآخرين... أنا في الحقيقة طرقت أبوابا كثيرة لأحصل على عمل، ولم أكن أتخير مهنة دون غيرها، لا ... بل كنت مستعدا أن أعمل أي

عمل فجميع المهن مناسبة أمام احتياجي، وتعطشي لعمل يسكن آلام معدتي، لكن دوري في ديوان الخدمة المدنية بعيد جدا، هو في الحقيقة لا يقترب، حيث أنني كلما استطوله، أذهب وأراجع ، وأستفسر فأراه يزداد تباعدا، وأترك لكم تقدير الأسباب، والشركات تقلص من موظفيها، ولا تضيف موظفا جديدا ليكون عبئا عليها فتصرف راتبا إضافيا هي بغنى عنه، والورشات تفعل ذات الشيء في تخفيض عدد العمال لنفس السبب، ولكي أفتح مصلحة يلزمني مال، والمال معدوم بدليل أني جائع، وكرامتي لا تسمح لي أن أتسول، أكرر هذا بإصرار، وبعد تفكير وتمحيص لمعت في ذهني مهنة لا تتطلب رأس مال، ولا شهادات علمية، ولا شهادات خبرة، ولا شهادة حسن سيرة وسلوك، ولا حتى واسطة، كل ما يلزمني أن أحمل زجاجة ماء، وقطعة قماش مبللة، وأمسح واجهات السيارات على الإشارات لأحظى ببضعة قروش تطيل أمد بقائي على حياة مهمشة أعيشها مسحوقا، إذن هذا هو الحل الوحيد الذي وجدته بعد عناء وتسكع بين ديوان الخدمة المدنية،

والشركات، والورشات، والمحلات، والمطاعم، والمخابز، وحتى البسطات، كنت أبحث عمن يؤجرني بسطة أجلس بها على قارعة الطريق دون جدوى.

وقفت على إشارة قريبة من بنك ، لعل من يغادره ممتلئة جيوبه يفيض علي ببضعة قروش مقابل مسح زجاج سيارته ... كنت واقفا أنتظر، وإذ لمحت الإشارة حمراء هرعت نحو سيارة باشا، وباشرت عملي، وبدأت أمسح الزجاج الأمامي، انتهرني صاحب السيارة ممتنعا عن تقديم خدمتي ، فتوجهت لسيارة أخرى، وعندما ابتسم صاحبها استبشرت خيرا، ومسحت الزجاج بهمة ونشاط، ومددت يدي، لكن الإشارة تغيرت، وغادرتني السيارة دون أن أستلم أجري، هززت رأسي آسفا، منكسفا، لاعنا الإشارة التي لا تمهلني الوقت الكافي، وأخذت أنتظر مزاجها لينقلب مرة أخرى لصالحي، وفعلا أضاءت حمراءمتوهجة، وكررت المحاولة، ومسحت زجاج سيارة بإخلاص، وكنت حريصا لأكسب الوقت قبل أن يعتل مزاجها فتخضر، وتوجهت

لصاحب السيارة قرب النافذة، لكنه ابتسم بسخرية، ورمقني باستهزاء، ثم شتمني، واتهمني بامتهان التسول المبطن، وأغلق الزجاج دوني، ولا أريد أن أحدثكم عن جرح مشاعري، فأنا من البداية رافض فكرة التسول حفاظا على كرامتي، فأصونها وأفتخر بما أملك من خلق رفيع، واحترام لذاتي، وهذه ثروتي التي لا تسكت جوعي ولكنها تشعرني بالرضى، ولكني الآن كمن لطمتني العتبة... فأنا حقيقة أتسول مستعملا زجاجتي وقماشتي المبللة. صدق الرجل ونبهني للحقيقة التي غابت عني عندما قررت أن أقف على الإشارة، ثرت لواقعي اللعين، وقذفت بالزجاجة على الأرض، ورميت قطعة القماش ودستها، وجلست على الرصيف حائرا، ووضعت يداي على رأسي مهموما، إذ بفتاة رقيقة تمر قربي وترمي عشرة قروش أمامي، وتغادر أمام دهشتي، وعندما تمالكت نفسي نظرت إليها أريد أن أشرح لها أني لست متسولا، ومددت العشرة قروش لأعيدها إليها، لكنها لم تنتبه، وواصلت دربها، نظرت إليها متباعدة، والعشرة قروش في يدي لا تزال، ودون إرادتي

سالت دموعي، كانت ساخنة، تلفح حرارتها خدي، جلست مطأطئا رأسي، والغريب أن المحسنين من المارة، أغدقوا علي برائزهم، نظرت إذ أنا أملك ثمن كيلو من الخبز... ثم جلست في اليوم التالي، وقلت أجمع ثمن الخبز وأنطلق، لكني من حيث لا أدري، أصبحت أطيل البقاء، فأشتري مع الخبز شيئا آخر... وهكذا امتهنت مهنة كنت رافضا لها رفضا باتا، لكن الدهر قُلّب، انقلب ضدي أو معي سيان، النتيجة أنني أصبحت متسولا لامعا كما ترونني اليوم، ولم آبه لموظفي التنمية اللذين يقتادوني بين فينة وأخرى لأمتثل للقانون، وأكتب تعهدا بألاّ أعود للتسول، وأدفع غرامة مالية، وأُكفّل وأخرج من معتقلي لأجلس في صباح اليوم التالي مادا يدي، ممارسا مهنتي التي ألفتها مع الزمن.

أنا الآن في يسر، ولم أعد جائعا، لكني فقدت آدميتي واحترامي لذاتي، فقدت كرامتي التي هدرتها أمام نظرات المحسنين إذ يرثون حالي ويحتقرونني، نعم... إذا كنت أنا نفسي أحتقرها فما بالكم أنتم؟ باختصار فقدت الرضى... فقدت ثروتي التي كنت أملكها وأنا معدم،

لأغرق في ثراء مزيف، لكني لم أختر مهنتي، بل هي التي اختارتني، وكنت منقادا إليها. قد تقولون كان باستطاعتي بعد حصولي على رأس مال مناسب أن أعتزلها وأنشيء مصلحة ما، لكني عبد مأجور، فمهنتي اسعبدتني، والعبد أسير مالكه، فلا تلوموني، ولا أطلب منكم أن تحترموني، ولكني أتمنى أن أكون مهمشا، ضعوا برائزكم بين يدي ولا ترمقوني... تجاهلوني... فقط تجاهلوني.

***

المهمش الثاني

نظرت إلى حذائي، إصبعي الكبير صنع فتحة يطل منها على العالم الخارجي، ولا سبيل لرتقه، أقصد رتق حذائي، فأنتعله مهترئا، وأتمنى أن يمتد بقاؤه ريثما أتدبر أمري، هو من أولوياتي التي لا تتعدى أصابع اليد... أجرة منزلي، وفاتورة الكهرباء والماء، وخبز يسد رمقي، وهذا الحذاء... في الحقيقة الحذاء أولا، وحتى أتمكن من تسديد مستلزماتي يلزمني راتب سنة كاملة من العمل المتواصل، لكن ستتراكم الفواتير، ولن يصبر علي صاحب البيت، سيطالبني بالتسديد أو يطلب مني إخلاء المنزل. أنا في الحقيقة أستأجر غرفة فوق سطح إحدى العمارات، وشقتي هذه تتسع لي، ولفتاة أحلامي، قد تتساءلون عمن تكون... هي شبيهة سندريلا، وأجمل من شهرزاد، تكاد تكون في عظمة كليوبترا، وفتاة تحمل هذه المواصفات حتما تعيش في مخيلتي فقط، عندما أغمض عيني أراها، الوصول إليها أسهل ألف مرة، فهي ستقبلني بلا مهر أقدمه لها، وسترضى بسكني المتواضع هذا، ولن تطالبني بكسوة وحلي،

فأنا أراها ترفل في ثوب براق وحلي كثيرة، وعندما أمد يدي لأصافحها تختفي فأفتح عيني ولا أرى غير الفراغ، وأرتضي بتلك الزيارات الخاطفة التي تترك أثرا يسعدني ويرضيني بقية ساعات يومي ريثما يتسنى لي لقاء آخر. لكن اليوم وأنا منهمك بقلي حبات الفلافل في المطعم المتواضع الذي أعمل فيه، أتت فتاة مليحة، متوردة، في عينيها بريق أخاذ، وطلبت أن تشتري الفلافل، نظرت إليها، ومن حيث لا أدري، وبسرعة عجيبة عقدت مقارنة بينها وبين فتاة أحلامي، فوجدت الفرق شاسع، ولكن عصفور باليد ولا عشرة على الشجرة، وهذه الفتاة عصفور حط على غصني، وخصوصا أن حذاءها مهتريء كحذائي، فليتحد الحذاءان إذن، ولكن كيف؟ ابتسمت وأنا أنظر إليها، ابتسمت بدورها مما شجعني، وزدت حبتين من الفلافل وضعتهما في المغلف وناولته لها، نظرت إلي بامتنان وغادرت، وعندما عدت إلى منزلي استحضرتها في مخيلتي، فتاة رثة الثياب، بحذاء مهتريء... عز الطلب، في الحقيقة تغيرت مواصفات فتاتي، لم تعد ترفل بثوب براق، بل هو

ثوب بسيط، كما أنها جرداء من الحلي، وملاحتها لا ترتقي إلى ملاحة كليوبترا أو سندريلا، لكنها جميلة، خلاصة القول سحبتني إلى الواقع الذي أبعدتني عنه فتاتي الأولى، وأنا بطبيعتي قنوع... ظروفي تجبرني على القناعة بأقل القليل حيث أنه المتاح، إذا كان متاحا، وفتاتي هذه مسحوقة مثلي تماما، لن تطالبني بمهر غال، صحيح أن فتاة أحلامي الأولى لن تطالبني بمهر إطلاقا، لكن فتاتي هذه سترضى بالقليل، وعلى الأغلب ستقبل بي على علاتي، نظرت إلى حذائي، وقلت مع ذلك علي أن أستبدله بحذاء آخر لأقابل أهلها بثقة، سأفعل هذا في أقرب فرصة. ذهبت إلى عملي في اليوم التالي أنتظر قدومها لأفاتحها بالموضوع، لكنها لم تأت، طال غيابها ومع مرور الأيام أصبحت تدور في مدارات أحلامي، ولكني لن أسمح لها أن تتحول إلى حلم، هي واقع وحقيقة، وأقنعت نفسي أنها ستأتي ... ستأتي... حتما ستأتي، علي الإنتظار فقط، كدت أيأس، لكن الله ودود رحيم، إذ أقبلت فتاتي لتشتري الفلافل، لمحت شخصا يرافقها، لعله أخوها، كان مديد القامة، مفتول

العضلات، رث الثياب، انشرحتُ لرؤيته، فهو من طينتي، سلمت عليه بحرارة، نظر إلي مندهشا، بينما فكرت مع نفسي ... لعلها أدركت مرادي فأتت برفقته لتتيح لنا التعارف، نظرت إليه باشا، وأحضرت له طلبه، وناولته إياه ودعوته لزيارتي، نظر إلي بذهول واستغراب، فكرت... ربما ينتظر أن أطلب زيارته فحقه أن أبادر أنا إليه، قلت: في الحقيقة يشرفني أن أزورك في بيتك، ونظرت إليها وابتسمت، فغضت بصرها وأطرقت مما زادني إعجابا بها، بينما نظر إلي الرجل حانقا، وغادر بجلافة مما جعلني أكتئب، قلت: لعلها لم تفاتحه بالموضوع، أنّا لها أن تفعل وأنا لم أتحدث معها ولا حتى لمحت بمرادي، ولكن للعيون لغتها، وأظنني حملت نظراتي بما يكفي من حلو المعاني... انتظرت سانحة أخرى. في الحقيقة ،هي لم تغادرني ، إنها تحوم حولي، أو هكذا يتراءى لي وأنا مسترخ، مغمض العينين ، فأراها تقتحم عالمي وأدرك أنها محض خيال، لكنه خيال يخلو من وهج الأحلام، أنا حريص أن أنزع عنه بريق الأحلام... ما علينا، اشتريت حذاء من سوق البالة كبادرة تهيؤني للقاء

متوقع. طال غيابها... قلت علي أن أسدد فاتورة الكهرباء لأهيىء لها مقاما آمنا، وفعلا سددت فاتورة الكهرباء والماء، بقيت أجرة ثلاثة شهور لمنزلي، وعندما فكرت بذلك شعرت بالخيبة، ولكني لن أستسلم، أصبحت بعد دوامي في المطعم أبحث عن عمل إضافي، ثم وجدتني أتعهد بغسيل السيارات في الشارع الذي أقطنه مقابل خمسة دنانير شهريا للسيارة الواحدة، وهكذا كنت في الليل أغسل السيارات، وفي الفجر أهرع إلى المطعم. سددت أجرة منزلي، لكنها لم تأت وأنا صبور... صبور... إيه ... أخيرا أقبلت، كان بطنها منتفخا، نظرت إليها بذهول، هي امرأة حامل، إذن كان ذاك الذي رمقني بعداء زوجها، تبسمت ابتسامة واهية، ونظرت إليها بخجل وكأنني أعتذرذنبا لم أقترفه، أعتذر عن سوء طالعي، ناولتها الفلافل وواصلت يومي بفتور، في المساء عدت إلى منزلي وأغمضت عيني لأستحضر فتاتي الحلم، حبي الأول، شبيهة سندريلا، لكنها لم تستجب، ولم تقبل اعتذاري، ولم تسامح خيانتي، غادرتني... رحلت بلا عودة، لم أعد قادرا على

استحضارها. خسرتها ... خسرت حلما كان يسعدني، قتلته ببساطة عندما أردت أن أقحمه إلى واقعي، والواقع والحلم لا يلتقيان، أحدهما عدو صاحبه، بل قاتله، فما بالك عندما ينتحر الضدان، أنا الآن أشعر بالضياع ... الضياع.

***

المهمش الثالث

أدرك أن الدنيا تتلاعب بنا نحن الغشيمين الذين لا يتقنون اللعب، نحن نتقن فن الدعاء فقط، ولو كانت الدعوات تتحقق لوجدتني بلا ديون، بل لأصبحت من علية القوم، مركز ومال وجمال وحسب... ولا أريد أن أقول نسب حيث أنني أعزب، أما والحال على ما ترونه حيث أن مالي الشحيح ومركزي المتواضع لا يشفعان لي، ولا يتيحان أمامي فكرة الإرتباط والزواج، فأقلعت عن التفكير في هذا إلى أمد بعيد، أما حسبي لو تعلمون... أكاد أكون مقطوعا من شجرة، حيث ولدت لأب يتيم وأم مسحوقة، وزادها القدر سحقا بارتباطها مع أبي، إنهما الورعان التقيان، غادرا دنيانا الفانية حيث اتفقا مع المرض ، ليمرضا المرض ذاته ويموتا تباعا بفاصل أسبوع بين الميتة والأخرى.

وجدت نفسي وحيدا، ولا أخفيكم أني أحيانا أتمنى الموت ليجتمع شملي معهما، وبالأحرى لأتخلص من أعباء معيشة لا تسر حبيبا ولا

عدوا. أنا ولدت في ليلة القدر عندما استجاب الله لوالدتي دعاءها أن يهبها غلاما فكنت أنا ، ولكني لا أعرف لماذا لم توفق أمي بأدعيتها الكثيرة، بل بالأحرى تحقق دعاء وحيد حيث دعت أن يهبني الله رزقا حلالا، ورزقي المتواضع هذا حلال، وقيمته التافهة تشهد أنه كذلك، فكل ذي مال لا بد أن يكون قد تصالح مع الحرام ومارسه، هي ليست قاعدة ولكنها تنطبق على معظم الجيوب المنتفخة.

اليوم حط عصفور على نافذتي، تهيأت لسماع النبأ، فكما كان يقال لنا في طفولتنا أن المعلومة نُقلت إليهم من العصفور، كنا نتشكك في صحة ذلك، والآن أمام حقيقة وجوده أمامي أصدق كل شيء. أصغيت إلى عصفوري الذي أخبرني أن مديري سيستغني عن خدماتي، إذ ستخفف الشركة من موظفيها كوسيلة لترشيد الإنفاق، توجست شرا وانقبضت... وفعلا في نفس هذا اليوم بلّغني المدير الخبر المشؤوم، وطلب مني أن أقدم استقالتي، قلت له: أنا لا أريد أن أستقيل، ولكنكم أنتم تريدون الإستغناء عني ، فلتفعلوا هذا بقرار فصلي وينتهي الأمر،

لكنه صمم أن أقدم استقالتي واتهمني بالإهمال والتزوير، وأخبرني أن شبهات تحوم حولي مومئا إلى اختلاس شاع خبره في الشركة، وأظنه اختلاس وهمي، هو في الحقيقة سلاح يستعملونه ضدنا نحن الذين سيستغنون عن خدماتنا،ونصحني أن أستقيل ليكفوا عني وعفا الله عما مضى، فعلمت أن مكيدة حيكت ضدي حتى لا أطلب مستحقاتي من الشركة، ولمت عصفوري الذي أخفى تفاصيل استغنائهم عني، ويشهد الله أني بريء من كل ما نُسب إلي، ولكن الكف لا تقاوم المخرز... خلاصة القول قدمت استقالتي، وسلمت أمري إلى الله، وها أنا أجلس في باحة منزلي، وأمامي عصفوري الذي تعاطف معي وحط على كتفي يواسيني، ولكني أضمرت له العداء، فهو لم يكن صريحا بما يكفي ليلقي على مسمعي الحقيقة كاملة... مع أني في قرارة نفسي أدرك أني أترك العدو الحقيقي لأصنع عدوا وهميا أحاربه لأنفس عما تزدحم به أعماقي من ضغوطات وسخط وألم وكبت. نظرت إلى العصفور الذي خنقته وبكيت، بكيت بغزارة، وأصارحكم أني لا أنوي الإنتقام، ولكني أكره

فكرة استسلامي، أكره ضعفي وقلة حيلتي. أنا أشعر بالحزن، حزني على نفسي، وعلى عصفوري المغدور، وكرهت نفسي إذ مارست ذات الطقوس التي مورست ضدي في الشركة، مارستها على عصفور ضعيف، ذنبه أنه تلطف بنقل المعلومة مخففا حدتها لأتجرعها على مراحل، ولكني اعتبرت ذلك غش وخداع.

***

المهمش الرابع

قالت له زوجته: ما بك لا تبرح إلى عملك، هل أنت مجاز؟

قال: لا ... ولكني مجاز.

قالت بدهشة: كيف لا ... ونعم؟

قال: انقلبت الأمور، وانقلب رأسي معها، دعيني وشأني ولا تسأليني... ووضع يديه على أذنيه وأطرق كإشارة رافضة منه للتواصل مع أحد، نظرت إليه بذهول وقالت: يجب أن تذهب إلى العمل.

قال بسخرية: أجزت نفسي، نظرت إليه بدهشة ، واصل ببرود: صاحب البيت ينتظر في الأسفل، لمحته من النافذة. قالت: وماذا إذن؟ صرخ: يريد الأجرة... ثلاثة شهور متراكمة، عيل صبره، ثم قال بهدوء ويأس: وعيل صبري كذلك. قالت بلطف: قد تستلمون رواتبكم، لا تيأس. قال: ثلاثة شهور لم نستلم، الشركة وضعها في الحضيض، وهي تقلص

من موظفيها، وإن تغيبت فُصلت ... زعقت: لا تتغيب إذن. قال: وإن داومت لا أستلم راتبي، سيان إذن ، المهم أن أتوارى من أمام صاحب البيت. قال هذا وهو يدرك أن صاحب البيت يستطيع أن يصله في عقر داره، يستطيع أن يطرق بابه، والإختباء داخل البيت ليس له مبرر.

زوجته باعت إسوارتها الوحيدة الشهر الماضي، ولم يبق معهما غير خاتمي الزواج، هل يبيعهما؟ ولكن ثمنهما لا يسدد أجرة المنزل. ناولته زوجته خاتمها وقالت: محفور عليه اسمك، يعز علي أن أنزعه من إصبعي ولكن... وانحدرت من عينيها دمعتان، شد على يدها وتناول الخاتم ونزع خاتمه كذلك وقبض عليهما معا وغادر... أقسم لصاحب البيت الذي يترصده أمام العمارة أنه ذاهب لاستلام راتبه، وسيعود ويسدد ما عليه من أجور، وأقسم ووعد أن يلتزم، والإلتزام من شيم المحترمين.

فكر... هل عدم التزامه بوعده يحقره؟ غلى الدم في عروقه، هو يحترم نفسه، ولكن هل نفاد النقود من يديه ينفي عنه صفة الإحترام؟ هو مفلس... ولكن إفلاسه ليس بسبب تبذير أو سوء إدارة، ولا تقاعس أو

تقصير بالعمل، وتهربه من صاحب البيت ليس بقصد النصب والاحتيال... حقيقة إفلاسه واقع لا مفر منه، واقع يقزّمه، ويجرح مشاعره، ويقلل من احترامه لذاته، وهي الصفة الوحيدة التي يعتز بها أمام نفسه... ها هو يفقدها الآن ، إنها تتسرب منه دون إرادته. أدرك أن لا قيمة للإنسان في مجتمعنا... والأدهى والأمرّ كيف يقنع صاحب البيت أنه محترم بعد أن يعود في نهاية هذا اليوم خالي الوفاض، لا يملك غير ثمن الخاتمين الذي أزمع أن يدخره لنفقات هذا الشهر. ذهب إلى عمله وهو قابض يده، ولم ينتبه لقبضات زملائه المماثلة لقبضته. بعد انتهاء الدوام هرع إلى الصائغ، وبسط كفه عن الخاتمين ليفاجأ بزملائه يبسطون أكفهم كذلك، بل توالت الأكف من أشخاص آخرين لا يعرفهم ... نظر إليهم الصائغ وابتسم بخبث وبريق شهوة يشع من عينيه.

***

المهمش الخامس

أبدى امتعاضا وتذمرا جعلني أشعر بالحرج، لكنه برغم ذلك أقرضني العشرة، ربما تتساءلون ما هي العشرة؟ في الحقيقة هي عشرة دنانير أستلفها منه في منتصف الشهر عندما يتسرب راتبي كالماء ولا يترك أثرا، وفي نهاية الشهر أسددها، ولكن ما أن يأتي منتصف الشهر أعود وأستلفها من جديد، وصديقي هذا يفهمني، ويدرك أني لا أحتال عليه، أنا مجرد آذن بالمدرسة وهو أستاذ التاريخ، لكنه لطيف ويتودد لي وأنا أحترمه، وعندما أستلف منه لا أضمر أن أستغل عاطفته نحوي ولكنها الحاجة اللعينة التي تجبرني أن أطأطيء رأسي وأمد يدي، لكني لا أمدها للتسول لا سمح الله وإنما أنا أقترض، لذا أحترم نفسي، وصديقي هذا يقرضني من مدة سنة، العشرة... هي دين ثابت لا يتغير، الآن لمست منه تذمرا، ماذا أفعل؟ وعدته أن تكون المرة الأخيرة، وأنا مصمم أن تكون الأخيرة، سأعيدها إليه ولن أستلفها ثانية، سأبرّ بوعدي لو اقتصر قوتي على الخبز والماء، لكن القدر أحيانا يتدخل ويقلب موازيننا،

فمرض أمي المفاجيء يضطرني للتراجع عما انتويت، اشتريت لها دواء غير متوفر في صيدلية المستشفى الحكومي، وهكذا أنفقت العشرة التي ادخرتها للسداد، وصديقي الأستاذ سيتفهم وضعي لكني وعدته، وعلي ألا أخلف وعدي لأحافظ على احترامه لي، فأنا أعتقد أنه يحترمني، أو على الأقل لا يحتقرني كغيره من المدرسين، علي أن أفي بوعدي، وقفت في زاوية متجهما، والأفكارالسوداء تتملكني، وبينما أنا مسترسل مع أفكاري لمحت أستاذ الكيمياء الذي مر بالقرب مني، ولأول مرة أشعر منه تعاطفا نحوي، وإذ لمست هذا بقرني استشعاري زحفت نحوه واستعطفته أن يقرضني العشرة، وحالا سددتها لأستاذ التاريخ، وابتسمت بثقة وخيلاء، ووعدته ألا أستقرضها ثانية، وفيت بوعدي أخيرا، وتنهدت بارتياح، أزحت عبئا ثقيلا عن كاهلي، ولكن أنا لم أتحرر من عبئي، بل نقلته من كتف إلى كتف، وإذ أدركت هذا تسلل الحزن إلى أعماقي، فالحمل جاثم على صدري، يخنقني، فد تقولون المبلغ بسيط، لكنه بالنسبة لي ليس كذلك... ما علينا... في الحقيقة الفكرة

راقت لي، أصبحت أستلف عشرة من صديق وأسدد صديقا آخر، وأستلف من آخر لأنفق على عائلتي، ثم أستلف وأسدد، وهكذا تراكمت ديوني، ما العمل؟ أصبحت أتملق أصدقائي، وأتودد إليهم، ولا آبه بنظرات استصغار يرشقونني بها، في الحقيقة تخدرت مشاعري أمام احتياجي، لكني لا زلت أحترم نفسي مع أني أحيانا أشعر أني مسخ رقيع، لكن هذا الشعور لا يدوم طويلا، فأنا مضطر أن أرتدي ثوب حرباء أحيانا، المهم أن أتدبر أمري وأبر بوعودي لهم وأسدد، لكن قريبا ستنكشف لعبتي وسيتنكرون لي، هذا طبع البشر، أنا إنسان بسيط لكن الحاجة تجعلني أتفهم طبيعة الناس، فمنهم من يقرضني شفقة، وآخر يقرضني وهو باسط يده على ظاهر يدي استعلاء، ويرمقني بسخرية تكاد تكون غير ظاهرة ولكني أدركها، ألمسها، أفهمها، وأتقبل هذا ، أتقبل إهانتي وأعتبرها غير مقصودة، وإنما هو طبع البشر، ولكني فنان، أستلف من أحدهم ولا أجعله يشعر أني أستلف من غيره، أجعل استلافي متدثرا بألف غطاء من الكتمان والتستر، وهكذا أتنقل بينهم

دون أن أكشف أوراقي، ولكنها ستتكشف عندما أظهر عجزي وسيحتقرونني، وعندما تتزاحم أفكاري السوداء يكفهر وجهي وأتجهم، أما أستاذ التاريخ الذي بررت بوعدي له، ومن يومها ما اِسْتلف منه شيئا، نظر إلي وقال: أنا مسرور لأجلك، وفيت بوعدك، هذا دليل أن وضعك تحسن، ابتسمت بكبرياء وقلت: بررت بوعدي وكفى... ربت أستاذ التاريخ على كتفي وهنأني بالخروج من مأزقي وهو لا يدري أني بعد انتهاء الدوام سأحث خطاي إلى صديق جديد حيث وسعت دائرة أصدقائي، أصبحت أستدين من أشخاص خارج حدود المدرسة التي أعمل بها، نعم فدائرة أصدقائي تتوسع، وتتوسع ديوني... إلى متى... إلى أن يأتي الفرج الذي لا يأتي.

***

المهمشة السادسة

كان سندي، غيبته الأقدار عني ليرقد تحت الثرى مخلفا ذكرى أثيرة إلى نفسي. لا أدري لماذا أندبه اليوم وقد مضى على رحيله ثلاث سنوات، مضت كئيبة، مملة، ثقيلة، بطيئة، قاسية، جارحة، فتكت بقلبي فهوى. أنظر إلى طفلي، اليوم يتم عامه السادس، أي سيلتحق بالمدرسة ليخطو أولى خطواته نحو مستقبل مبهم، كنت أصطحبه معي إلى بعض البيوت التي أعمل بها كخادمة لقاء أجر زهيد، أسدد فيه أجرة منزلي، وأبذل جهدا مضاعفا لأكسب ما يسد رمقنا ويقيم أودنا فلا نهلك، والمدرسة عبء جديد على كاهلي سيضطرني لأضاعف جهودي في البحث عن بيوت جديدة أخدمها فكان بيت صاحب العمارة التي اسكنها، هذا الكهل، الورع، التقي الذي ما أن شعر بضيق حالي حتى عرض علي العمل لأعد له وليمة دعا إليها بعض أصدقائه. سررت وبذلت جهدي، ووضعت لمساتي وتفننت في إعداد الطعام مع أني كنت خائفة أن أمارس هذا العمل بعد انقطاع أنتم تدركون أسبابه. سُر الرجل

وتعاطف معي إذ أنه يدرك مصابي بعد أن خاض تجربتي عندما ماتت زوجته وبقي وحيدا، الفرق بيننا أنني فقدت معيلي، بينما هو فقد أنيسه.

حضر الأصدقاء، تفانيت في خدمتهم، ولملمت بقايا الأكل عن المائدة إذ بسيدي صاحب الوليمة يهمس في أذني قائلا: لا تلقي هذه البقايا في النفاية، بل إجمعيها وخذيها إلى بيتك لتأكلي مع ولدك، قال هذا والتحق بضيوفه يتسامرون، أما أنا فقد تسمرت في مكاني من المفاجأة، وسالت دموعي، ثم نظرت إلى الطعام باشمئزاز وقرف، ومع ذلك جمعته في كيس، إنه كان يكفي ليقيم أودنا هذا اليوم واليوم الذي يليه، ولكني أشعر بالمهانة... في الحقيقة أنا لم أتجرأ وأقتطع لنفسي حصة من الطعام، كنت انتظر هذه الدعوة من سيدي، فأتت جارحة تذبحني، مهينة تذلني، ولكني مضطرة لقبولها.

وضعتها أمام طفلي، أشرقت أساريره وابتسم ونظر إلي مستفسرا، قلت: دونك الأكل يا ولدي ، كل. تناول طعامه بشراهة وسعادة، لم أشاركه الطعام، كنت سسعيدة من أجله، ولكني كنت تعيسة أيضا،

كنت مطعونة بنصل سكين ينغرس في قلبي، ومع كل لقمة يبتلعها صغيري يغور السكين إلى أعماقي ويفتك بي، سالت دموعي وأنا أراقبه، انتهى من طعامه، كان سعيدا، أما أنا فأجهشت بالبكاء، نظر إلي صغيري مستغربا وقال: هل غضبت لأني أكلت كثيرا، أنا لم أقصد... لكن الأكل لذيذ، تضاعف حزني، وبكيت أكثر، والصغير جالس أمامي، ينظر إلي بحزن، وأنا لا أعرف كيف أعلل له سبب بكائي...

***

المهمش السابع

جلس صاحبنا يتأمل نتائج بحثه عما يسببه هذا الوباء من خسائر مادية ومعنوية، وأجرى إحصاءاته وراجع بياناته التي عمل عليها طاقم كبير، وما عمله إلاّ فرز لأدلتهم واستقصاءاتهم، فكر مع نفسه كيف يجبره هذا الكائن الصغير الذي لا يُرى بالعين المجردة لكل هذا الحذر والتقصي، إنه يتوارى خلف قناع أو كمامة، ويدس يديه في قفازات كذلك عندما يتطلب منه عمله الخروج إلى الشارع حيث أنه مُصرّح له التحرك أحيانا عندما تقتضي الضرورة لذلك.

في الواقع هو يتوارى من كائن دقيق، غير ظاهر للعيان، لكنه يرى فتكه في هزيمة أوقعها، في فقد حبيب أهلكه، في مؤسسة لم تدمرها قنبلة أو قصف أو سلاح كما اعتدنا أن نشهد الإعتداءات على بلادنا من قبل متطرفين أو محتلين، لكن هذا العدو الضئيل... الكبير... يجبرنا أن نجمد أعمالنا في مؤسساتنا وإلا فتك بنا، فنغلقها ونتوارى في بيوتنا ،

وأحيانا قد يكون هناك شخص محجور عليه، وتشاء الصدفة أن تجعله أحد أفراد أسرتنا فيحتجب عنا في غرفته، ولا نتواصل معه إلا عبر الهاتف مثلا، وأي تصرف غير مدروس في التعامل معه يتسلل هذا الخفي إلينا، ونراجع حساباتنا مع أنفسنا لنكتشف كيف وصل إلينا الوباء.

خلاصة القول: عندما ترى عدوك في كامل عدته وعتاده يحاربك، تدرك أنك أمام تحد كبير فتشتبك معه، إما أن يهزمك أو تهزمه، ومهما كانت النتيجة فأنت ملم بأبعادها، إذا هزمته سجلت انتصارك، وإذا هزمك سترسم خطتك لهجوم معاكس يتيح لك فرصة الإنتقام، أما هزيمتك أمام عدو خفي تقلب الموازين أمامك، إذ أن هزيمتك تكون أشد إيلاما حيث لن يتسنى لك الإنتقام المحسوس الذي يشفي غليلك.

بينما كان صاحبنا يتخبط مع أفكاره إذ سمع جرس المنزل يرن، استغرب من يكون القادم إذ أن حظر التجول مفروض على الجميع، لا

بد أن يكون أحد سكان العمارة، تكرر الرنين مما جعل صاحبنا يفتح الباب ليفاجأ برجل في أواسط العمر، نظر إليه مستغربا ثم قال:

- لست من سكان العمارة يا هذا ... من أنت؟

- أنا ... أنا...

- كيف خاطرت بخروجك من منزلك والحظر قائم.

نظر إليه الرجل بصمت، بينما بادر صاحبنا:ما بك؟ فقدت النطق؟ أم هو أسلوب جديد لجذب الانتباه! قال هذا وضحك ضحكة قصيرة ثم أمعن النظر بالرجل الذي كان يقف مرتبكا، محتفظا بصمته، قال صاحبنا: هيأتك لا تدل على أنك شحـ...

سالت دموع الرجل بصمت... بينما نظر إليه صاحبنا باهتمام ثم قال بلهجة نادمة: يبدو أني تسرعت في الحكم عليك... أنا على يقين أن وراءك حكاية.

- أنت لم تتسرع... أنا قصدتك سائلا، أنا للأسف أقف ببابك شحاذا الآن... هذا هو الواقع وإن كنت كارها له.

- كيف خطر لك أن تمارس مهنتك في ظرف كهذا؟

صرخ الرجل: ليست مهنتي، ثم أجهش بالبكاء.

نظر إليه صاحبنا بصمت وانتظار وقد لامس قلبه شفقة عليه ثم قال: لا بأس، يبدو أني تسرعت مرة أخرى، أعذرني ولكن...

تمالك الرجل نفسه وقال: لست شحاذا، ولا أحفظ عبارات تُتلى لاستدرار عطفك وشفقتك، قال هذا وأطرق بصمت، قال صاحبنا: وفر عليك عناء الحديث، ودس يده في جيبه ومد نحوه ورقة نقدية مما جعل الرجل ينظر إليه بقلق وسخط وارتباك وغضب، تراجعت يد صاحبنا وهي ممسكة بالورقة النقدية ثم قال: خفف عنك، أنا على يقين الآن أنك لست شحـ...

-قال الرجل منفعلا: أنا عامل مياومة، والعمل متوقف، انقطعت بي السبل، ونفد المال القليل الذي كان بين يدي، وأسرتي تتضور جوعا فقصدتك، ثم استرسل بانفعال: أنا لم أقصد بيتك بالذات عن دراية بك ومن تكون! لكن بيتك أول بيت أقصده، لماذا... لا أدري، هي الصدفة التي قادتني إليك، وجعلتني أقف أمامك ذليلا، ثم صرخ: أنا شحاذ، أمارس هذا العمل للمرة الأولى.

- لكن ... (ونظر صاحبنا إلى الورقة النقدية في يده): أنت رفضت... أو هكذا هُيء لي أنك...

- نعم رفضت... أنا أريد طعاما، خبزا، أنت قلت الحظر قائم، وماذا ستنفعني الدنانير الآن والسوق مغلق، أنا بحاجة لطعام.

- لكن قدومك فيه مخاطرة كبيرة، أين تسكن؟

- في الشارع المحاذي لشارع بيتك.

- كيف تسللت إلي؟

- عميت العيون عني... لطف الله.

- ولكن قد يعتقلونك.

- يكون فرج لو فعلوا هذا، إذ سأجد ما يسد رمقي لهذا اليوم، ثم قطب فجأة وقال: أعرف أن جوابي فيه أنانية لا أغفرها لنفسي.

-كيف؟

-قلت لك تركت أسرة جائعة تنتظر.

-أدخل، سأقدم لك شيئا من الطعام.

نظر إليه الرجل باستنكار وغضب ودهشة، استدرك صاحبنا وقال: سأعطيك شيئا لأهل بيتك، لا تقلق، أعذرني، لقد أسأت إليك.

-لا بأس، لا بأس، أنا أسامحك، فقط هات الطعام الآن فأطفالي جياع.

أعطاه صاحبنا ما تيسر من طعام موجود في بيته، تناوله الرجل بلهفة وفرح ثم غادر مسرعا ولم يبال بنداء صاحبنا له ليعرف بيته ومن يكون،

ليرشد إليه ذوي الشأن لمساعدته. أغلق صاحبنا الباب وتوجه للنافذة ليتعقبه بنظراته، لكنه لم يره ، ولا يعرف ماذا سيحل له في قادم الأيام، هو يعلم شيئا واحدا، يعلم أنه أمام هزيمة من هزائم هذا الكائن الخفي، هزيمة مكرورة في كثير من البيوت، تنهد صاحبنا والتفت إلى جهاز الكمبيوتر ليتابع عمله بصمت واكتئاب.

****

الأديب

جلس الأديب المخضرم متأهبا لكتابة روايته الجديدة، تزدحم في أعماقه أفكار متشعبة، لكنها سرعان ما تخبو، بل توأد في حينها رغما عنه، تذكر أنه كتب أفضل رواياته عندما كان يمر بظروف متضعضعة في مستهل حياته، هو على يقين أن المعاناة تخلق الإبداع وتثريه، وتبرز معانيه، وهو الآن يعيش حياة رغيدة، ينعم باستقرار أسري ورخاء مادي، هذا الإستقرار يجعله يشعر بالتبلد والركود، ولكن ألا يستحق هذا الرخاء أن يُكتب عنه، لو فعل هذا سيولد عمل مترف، يفتقر إلى نبضات وأحاسيس ومشاعر الأغلبية الساحقة، إذن عليه أن يجوب أروقة الأحزان في قلوب أناس يعيشون حوله، عليه أن يخترق حاجزه البلوري الذي يتقوقع خلفه.

نهض بنشاط، وارتدى ملابسه على عجل، وصمم أن يخرج، والأفضل أن يختار شارعا مهمشا ليتجول فيه، وقف قرب الباب مترددا،، وأفكار شتى تدور في رأسه، نظرت إليه زوجته وقطعت عليه

تسلسل أفكاره، وسألته عما يبقيه واجما كل هذه المدة، أجابها قائلا: سأخرج، ولا أعرف وجهتي، على الأغلب سأهيم على وجهي في أحد الأحياء الفقيرة، نظرت إليه بعجب بينما خرج لتوه قبل أن يتيح لها فرصة استجوابه، أو الحوار معه، تركها مندهشة وغادر، لم يستقل سيارته بل توجه إلى الباص ليكون ملتحما مع الناس، جلس على مقعد منفرد في الباص الصغير، آثر أن يكون منفردا ليراقب، ويشاهد، عله يستخلص فكرة ملهمة، تعيده إلى قوقعته، فيُخرج ما فاضت عليه العامة من عبر، ويصوغها وينسقها في عمل إبداعي مبهر. لمح سيدة تجلس في الحافلة، تفرس بها، تقاسيم وجهها تعكس حزنا لا يعرف منشأه، تحمل طفلا ملفعا، لعله مريض، فكر مع نفسه، ربما تكون ذاهبة إلى المستشفى مثلا، وهناك رجل ينتعل نعلا بيتيا يكشف عن أصابع قدميه والبرد قارس، هو الفقر إذن... شعر بالبرودة تسري في أوصاله، أغمض عينيه متأملا، طال تأمله، فجأة نظر إليه السائق وقال: أنت أيها النائم، وصلنا إلى المحطة الأخيرة ، والركاب جميعهم نزلوا إلا أنت،

نظر إليه حائرا وقال: ربما سأعود على متنك من حيث أتيت، قال السائق: أظنك تائها، ربما أدلك على العنوان، أين وجهتك؟ قال بعد تردد: أقصد وجه الكريم عله يهديني إلى ضالتي. نظر إليه السائق بعجب بينما استرسل قائلا: لعلي تائه، في الحقيقة أنا تائه ولست بتائه. ضرب السائق كفا بكف واستدار عنه وباشر القيادة، فجأة قال له الكاتب: أرجوك، لا تحمّل ركابا، وسأدفع لك أجرة حمولتك كاملة.

قال السائق مستغربا: ولماذا؟

-أريد أن أتحدث إليك.

- قال السائق: يا لطيف، لعلك مجنون، قال هذا وأوقف الحافلة، وتوجه إليه قائلا: إنزل من فضلك، ولا أريد منك أجرة.

- بل أبقى وأدفع، ومد نحوه ورقة الخمسين دينارا.

- قال السائق: أنا لا أفهمك، أنت تغريني إذ تمنحني هذا المبلغ، ولكن ما هي مصلحتك؟ أهو إحسان؟ أم لعلك مختل؟ لا تؤاخذني ولكن لا

يفعل فعلتك إلا من فقد عقله، ونظر إليه متمعنا وقال: لا أظنك مختلا، ما هي حكايتك؟

- خذ، ودس الورقة النقدية في جيب السائق الذي قال: حسنا، سأمنحك وقتا يساوي ما دفعته من مال. وجلس إلى مقعد مقابل الكاتب وقال: هات ما عندك، أخبرني قصتك.

- قال الكاتب: بل أنا الذي أتوق لسماع قصتك.

- أنا واضح، غير مُلغز مثلك.

- تحدث عن نفسك.

- قلت لك أنا إنسان عادي، أتشابه مع الكثيرين، وأشار إلى الشارع، أما أنت فوراءك حكاية ولغز.

-قال الكاتب بإلحاح: دعك مني وتحدث عن نفسك.

- صدقني لا أجد شيئا يقال، نحن لا يشغلنا شيء سوى لقمة العيش، وأنا ألهث خلفها، ولا وقت عندي يتيح لي أن أصنع حكاية أقصها عليك للترفيه عنك... أنت مترف كما أرى. أنتم لا مؤاخذة ترفهون عن أنفسكم، تقيمون الاحتفالات، تسافرون، تشترون ما طاب لكم من متاع الدنيا ، تحبون، ويغمض عينيه حالما ويقول: نعم تحبون وتعشقون.

- وأنت ألا تحب وتعشق؟

- لا وقت عندي للحب.

- ولكنك متزوج، ألست كذلك؟

- نعم، وأحب زوجتي، بالفطرة أحبها لأنها أصبحت زوجتي، ولو تزوجت من غيرها كنت أحببتها كذلك، ولكني بعد أن تزوجتها لا أستبدلها بغيرها، هي بالنسبة لي الحب والواقع.

- أنت تحب واقعك إذن؟

- نعم أحبه، ولكني أبغض قسوته أحيانا، ولكن من يدري، هناك مثل يقول: (صاحب المال تعبان) والدليل أنت، لولا أنك متعب ما لجأت للتحايل علي لترفه عن نفسك.

- قال الكاتب ممازحا: ولماذا تظنني متعبا؟

- لعلك تخشى اللصوص والمافيات.

- ولكن يوجد لصوص صغار بينكم.

-أظن أن اللص هو اللص سواء أكان كبيرا أم صغيرا، ويقال أن مصطفى الذي قُبض عليه بعد أن سطى على أحد البنوك ونهب مبلغا كبيرا كان مشردا فقيرا، ولصا صغيرا، كبر وارتقى إلى رتبة لص كبير.

-يا عزيزي هناك لصوص كبار، ولدوا كبارا، يتحكمون بمصائر الشعوب، ويحتكرون الاقتصاد المحلي والعالمي كذلك. مصطفى لص صغير يحجمه القانون والحوت الكبير محصّن.

-نظر السائق إليه متبلما ثم قال: أنا لا أفهمك.

- تبسم الكاتب وقال: لا عليك، أمسكت طرف الخيط.

- ماذا؟!

- نعم، القصص حولنا، موجودة في كل مكان. قال هذا وضحك.

- ما الذي يضحكك؟

- قلت لك أمسكت طرف الخيط، قال هذا وغادر أمام دهشة السائق الذي قال: مجنون ، دفع أكثر مما وهبته من وقت.

***

معركة الأيادي

كنت ماشيا في طريقي إلى وظيفتي، الشوارع لا زالت مضيئة، عما قليل سأصل موقفا لحافلة تقلني إلى عملي، فجأة لمحت رغيفا على الرصيف، ونفسي الأمارة بالسوء جعلتني أتوقف قربه، ووسوسة شيطانية تحثني لألتقطه، انحنيت ومددت يدي إذ بأياد كثيرة تسابقني إليه، تشابكت الأيادي، بينما سحبت يدي وانتحيت جانبا، لم أشأ العراك مع أياد لا أميز أصحابها، وقفت أراقب المعركة، وعما سترسي إليه إذ بيد كبيرة تطرد جميع الأيادي وتتربع فوق الرغيف الذي تفتت، وتناثرت أشلاؤه، ضحكت اليد الكبرى ثم تناولت أكبر كسرة من الرغيف واختفت، حذت بقية الأيادي حذوها، وتناولت كل واحدة كسرة وانسحبت، تمنيت من أعماقي أن يُبقوا لي شيئا، تفرقت جميع الأيادي بعد أن مشطت الفتات، نظرت إلى مكان الرغيف الفارغ، ومددت يدي وحفنت قبضة رمل نثرتها في الجو وواصلت دربي إلى موقف الحافلة، صعدت إليها، المقاعد مأهولة بركاب سبقوني ، وقفت مع أناس غيري يحتشدون، لم آبه

باهتزاز الحافلة، كنا متلاحمين، احدنا يسند الآخر، لمحت شابا يحمل رغيفا يشبه ذاك الذي لمحته على الرصيف، تسللت من بين المحتشدين في وسط الحافلة، واقتربت منه، نظرت إليه باهتمام وشغف، وسألته أين وجد هذا الرغيف؟ نظر إلي باستهزاء ولم يجب، أدركت بلاهة سؤالي، لكن الغريب أن أحدهم سأل ذات السؤال، ثم تكرر السؤال على لسان كل راكب من الركاب. دسّ الرجل الرغيف في صدره، وسد أذنيه ممتنعا عن الإصغاء لسؤال ملحاح يؤرقه، فكرت ... الراتب بعيد، وبالتالي الرغيف بعيد كذلك، وهذا الرجل يحتضنه، ويدسه في صدره، ويستدفيء به، نظرت إليه مستغربا، حانقا، حاسدا، حائرا... آسفا لسوء طالعي الذي يبعدني عنه... ما علينا ، توقفت الحافلة، نزلنا منها، وتوجه كل إلى غايته، وصلت عملي، كنت متأخرا، أنّبني المدير، أخبرته عن معركة الأيادي التي بسببها تأخرت، نظر إلي مستهزئا وقال: كف عن أعذار لا يصدقها العقل، ويرفضها المنطق، هممت بالانسحاب، تلكأت، فوقع نظري على مكتبه إذ برغيف ساخن أمامه، شدني منظره،

وجذبتني رائحته، توقفت أنظر إليه مندهشا وباشا... صرخ المدير: ما بك؟ إذهب وباشر عملك فورا، انسحبت منكسا رأسي، وبدأت يومي مكتئبا، نظر إلي زميلي وسألني عما يعكر صفوي، أخبرته عن معركة الأيادي، وعن رغيف المدير، وحتى عن رغيف ذلك الرجل في الحافلة، نظر إلي وهز رأسه بأسى كمن يرثي اختلال عقلي، ولكني لست مختلا، بدليل أني أسرد حكايتي بأدق تفاصيلها، أصابني كرب إذ لم يصدقني، وأخبرت زوجتي لم تصدق هي الأخرى مما زادني كآبة، وخصوصا أنها اتهمتني باللامبالاة نعتتني بأنني عديم المسؤولية إذ لم أحضر خبزا للبيت، الشهر في منتصفه، جيبي فارغ، نظرت إليها متبلما، صرخت: ماذا تنتظر؟ أحضر خبزا. تسللت من أمامها وغادرت المنزل، توجهت إلى الرصيف حيث وجدت الرغيف صباحا، علني أجد غيره، وقفت في ذات المكان الذي شهدت فيه معركة الأيادي... لم أر غير الرمل والوحل، خلا الشارع من المارة كذلك، وقفت أنتظر رغيفا يسقط من السماء، والسماء لا تُسقط غير المطر، ابتللت، وعدت إلى منزلي، تسللت

من أمام زوجتي، وأوصدت باب غرفتي دوني، ولم آبه بقرعها على الباب، ولا بصراخها، وشتائمها، وانزويت في ركن من الغرفة أحلم برغيف على الرصيف.

***

ذكريات طبيب

سقوط الهالة

(١)

فتح عينيه، هو في الحقيقة لم يكن نائما، بل هو لم يستطع النوم إطلاقا ليلة أمس، لم يكن أرقه بسبب مشكلة صادفته، أو حدث أليم ألمّ به، أو حتى انزعاج عكر صفوه، كان متوترا ذلك التوتر اللذيذ الذي يسري في جسده ووجدانه مُحدثا خدرا يدغدغ أحاسيسه ويفتح مغاليق قلبه على عالم جديد.

أمس استلم شهادته، واليوم عليه أن يتوجه إلى نقابة الأطباء لإتمام إجراءات تؤهله لاستلام وظيفته كطبيب إمتياز. نهض بنشاط، الساعة الآن الثامنة صباحا، عليه أن يبادر بالخروج، لكن اليوم هو الجمعة، تذكر هذا وابتسم ابتسامة واهية، وجلس بفتور، لا باس سينتظر يوما آخر. فجأة فتحت والدته باب غرفته برفق.

. أنت مستيقظ؟ جدتك مريضة، قالت هذا ونظرت إليه باهتمام وفخر، بينما نهض فورا، وتوجه إلى جدته، جس نبضها، تناول سماعته وجهاز الضغط، عاينها بعناية فائقة، فهي جدته، والأهم من ذلك هي أول مريضة يعاينها بعد استلام شهادته، كانت أنظار والديه متعلقة به، سألته أمه عما رسا إليه الكشف، طمأنها فهذه أمراض ومضاعفات مألوفة في مثل هذا العمر. كانت جدته تستنجده بنظرات قلقة لا تخلو من أمل، ربت على كتفها برفق، وتبسم ابتسامة واثقة بثّت في روحها الطمأنينة، تبسمت هي بدورها ونظرت إليه بعطف وحنان، أسعفها بما يناسب من عقارات وجلس قربها، تذكر أنه أسعفها قبل أسبوع، لم تكن نظراتها

متعلقة به كما هي اليوم، ولم يثر كشفه عليها انتباه والديه كحالها الآن، فهما ينظران إليه بشغف واهتمام، بل هو نفسه تغير، تذكر أنه لم يقم بإسعافها بذات الإحساس الذي يسيطر عليه في هذه اللحظات، أدرك أنه أصبح يحمل تجاهها مسؤولية لم يكن يحملها في ضميره سابقا، إذن هذه الورقة المسماة شهادة أجازته كطبيب، قلبت كيانه، صهرته في بوتقة جديدة، فكر مع نفسه، هو الآن طبيب، وقريبا سيمارس مهنته المقدسة بصفة رسمية، تذكر صديق العائلة وطبيبها الدكتور أمجد، تذكر الاحترام الفائق الذي يحيطونه به. في الحقيقة كان والده يرى حاجزا يقف بينه وبين الدكتور أمجد رغم صداقتهما القديمة، حاجز صنعته شهادته التي ميزته عن موظف في دائرة حكومية، هذا الموظف كان ينظر إليه نظرة إكبار، أما الآن بعد أن تخرج ولده مراد تزعزعت تلك النظرة، بل تلاشت تماما، أصبح يراه شخصا عاديا، كسر الحاجز الذي يفصل بينه وبين صديق عمره، والسبب ببساطة أن هذا الحاجز لا يستطيع أن يفصل بينه وبين ولده، إذن هو حاجز مُخترق، وهمي، لا

وجود له أساسا إلا في مخيلة مريضة ، أعلنت شفاءها اليوم بالذات أمام حقيقة دامغة، حقيقة أن ولده مراد أصبح مثل الدكتور أمجد تماما، لا فرق بينهما سوى سنوات الخبرة التي سيكتسبها الدكتور مراد مع الأيام.

***

مراوغة

(٢)

أول يوم عمل له تميز بنكهة خاصة، في السابق وهو تحت التدريب كان يعالج المرضى بإشراف الطبيب المقيم أو الإختصاصي، أما الآن فهو المسؤول أولا وأخيرا عن قراره تجاههم، شعر بالرضى، وابتسم بثقة أضفت عليه راحة وسكينة، باشر يومه، كان كل شيء يمر بوتيرة هو يجهلها، ولكنها مألوفة لمن خبرها من زملاء ألفوا المهنة ومع ذلك تميز يومه بحدث فريد، حيث دلف العيادة المراجع الأخير، نظر إلى الدكتور مراد وقال: لا تستغرب، أنا لست مريضا، ولكني بحاجة إلى إجازة تغطي هذا اليوم. نظر إليه الطبيب بعجب بينما تابع، كان بإمكاني أن أتظاهر بالمرض، ولكنك ستكشف ادعائي، هذا علاوة عن أني لا أحب الكذب.

- ولكنك إذ تحصل على إجازة باطلة، هو الكذب بعينه.

- أجابه الشاب: أحيانا نلجأ للكذب لتبرير ما، أو قل لظرف ما.

- آسف، لا استطيع أن أمنحك إجازة.

- قال له بجرأة وثقة: بل ستفعل.

- لا أحد يجبرني أن أوافق على عمل لا أقره.

- لو علمت ظرفي ستقره.

- سيان كان ظرفك، لا أريد أن أعرفه.

- سأخسر وظيفتي لو لم يُغط اليوم.

- هذا لا يعنيني.

- أنا أعيل أسرة، علاوة على أني...

أشاح الدكتور بوجهه عنه ، وأغلق جهاز الكمبيوتر ليعلن انتهاء الدوام.

- يا دكتور، لا تقس علي.

- أنا أحب الانضباط، مهما كان ظرفك، لن أتواطأ معك.

-أنا مضطر لهذه الإجازة، هي مسألة مصيرية، صدقني، تابع الشاب كمحاولة منه ليستميله إليه: أنا أعمل، ولكني إلى جانب ذلك أتعلم في الجامعة بدوام مسائي، هذا اليوم قُرر لنا امتحان كان لا بد من حضوره صباحا، ومديري في العمل لم يتعاون معي، فاضطررت للغياب لئلا أحمل مادتي وأسجل عبئا علي أنا في غنى عنه، والحل الوحيد هو الإجازة التي أطلبها منك.

اقتنع الدكتور مراد بمبررات الشاب، ولكنه لم يستطع أن يقنع نفسه بالمراوغة، أدرك أنه إذ يمنح الشاب إجازة سيخطوا أولى خطواته نحو الإنزلاق، وهو إذ يرفض تبريرات الشاب، ويغلف رفضه بألف قناع من المباديء والقوانين الرادعة، صمّ أذنيه، ولم تستطع نظرات الشاب

التي تحمل في طياتها لوما وحسرة، ورجاء، وخيبة في آن أن تجعل الدكتور مراد يلين.

قال له الدكتور أمجد: مشكلة الشاب بسيطة، قد تتعرض لمواقف محرجة تجعلك تراوغ، ولكن لتكن قناعتك سيدة الموقف، فقد تتنازل أحيانا من أجل دافع إنساني. أنا لو كنت مكانك منحت الشاب إجازة. تعجب الدكتور مراد كيف يوافق طبيب عريق بالمهنة أن يمنح إجازة باطلة، أدرك أن حتى في مهنة الطب المراوغة واردة، هز رأسه بعجب، ووميض قناعة تسلل إلى عقله وضميره أن عليه أن يراوغ أحيانا.

***

فاجعة

نفلها إلى المستشفى بعد أن فشلت محاولته إنقاذها في البيت، اُ دخلت غرفة العناية المركزة، نظرت إليه باستسلام. كانت تثق بحفيدها إلا أن نظرتها في ذلك اليوم كانت متشككة، وهو إذ يدرك حرج حالتها التي تتطور إلى الأسوأ لم يستطع أن يطمئنها بنظراته كما كان يفعل سابقا، نظر إليها محاولا ذلك، إلا أن حدسها بنهايتها كشف ما تخفيه تلك النظرات المضللة، شعرت برعب تملّكها، ثم فقدت الوعي، حاول جاهدا إنقاذها، فرد كل إمكانياته المعرفية والعلمية وحتى العاطفية أمامها كي ينتشلها مما هي فيه ، لكنه أخفق، فأسرع الموت مكشرا عن أنيابه لينهش ما تبقّى لها من رمق، وأرداها جسدا بلا روح. نظر إليها مصعوقا، وهو إذ يدرك بعقله أن نهايتها حتمية لا مفر منها إلا أنه لم يستطع أن يتقبل نهايتها بين يديه، لو ماتت بين يدي طبيب آخر خفّت وطأة موتها عليه، لكنها قست عليه واختارته لتسجل نهايتها أمامه، واختاره القدر حفيدا لها ليكون شريكا فاعلا يقودها لموتها المحتوم، بكى بحرقة، هي أول

مريضة أسعفها بعد أن نال شهادته، وهي كذلك أول مريضة تموت بين يديه، تبا للموت إذ يختار من نحبهم، وهو إذ يسلب الروح منهم يتركنا قتلى هوانا، كيف تختار أيها الموت ضحاياك؟ كيف تحمّلنا وزر وفاتهم؟ وأنت إذ تحيا بحصادك من الأرواح تتركنا نتداعى أمامك حتى الرمق الأخير. كرهت مهنتي في هذه اللحظة، الطبيب عادة ما يكون صانعا للأمل في نفوس مرضاه، إلا أني اليوم قدت جدتي إلى الهاوية، نعم حاولت إنقاذها لكنك أيها الموت أعلنت انتصارك وكسبت الجولة، فهي معركتي معك إذن. أعلم أنها معركة خاسرة، ونصيبي منها الخذلان إذ ستخطفني أيها الموت ذات يوم ستختاره أنت بفطنتك، ولكن إلى أن يأتي ذلك اليوم لي معك صولات وجولات، فها هم مرضاي الذين أقدم لهم كل وسيلة لتبعدك عنهم، وأنجح في معظمها، وأنت صبور... تعلم أن انتصاري لا يدوم، فتتحين وقتك، وتنظر إلي بخبث وتصميم وعزم وانتظار، فلك يوم مشهود تعلن فيه انتصارك بعد حين، وتسحب من تختاره إلى حظيرتك، ولكن بالمقابل تذكّر أن

هناك في مستشفى التوليد بينما أنت تحصد الأرواح يولد أطفال جدد، يتحدونك بوجودهم إذ يعلنون بداية حياة، ما أن تنتهي حتى تبدأ من جديد.

لك الرحمة يا جدتي، ليكن مثواك الجنة.

***

اِلْتباس

نظرت إليه بانكسار، وبخها بشدة، طأطأت رأسها وانحدرت من عينيها دمعتان، نظر إليها ونشوة عارمة تدغدغ أحاسيسه، لا يذكر كيف واصل الحصة، كان يشرح للطالبات وعيناه بين فينة وأخرى تلمحانها.. جلست في مقعدها مطأطئة رأسها، ترفعه خلسة وتلقي إليه نظرة خاطفة، ثم تطأطيء من جديد، ذات خلسة التقت نظرتاهما فبرقت عيونهما ذاك البريق الأخاذ الذي يختزل لغة العاشقين ليكون هو اللغة، تبسم بسمة خاطفة، وجال بنظراته على الطالبات بينما احمرت وجنتاها وشعرت بحرارة تسري في جسدها.

في المساء كان يطرق بابها، وبجرأة وبدون مقدمات طلب يدها من أبيها. الآن هي في بيته، تنظر إليه بجرأة وتحد وهي تطلب منه احتياجات المنزل، وبطنها منتفخة، بينما يشد صغير آخر ثوبها ليلفت نظرها إليه، أخذت تزعق وتشتكي من قسوة الحياة ، لم يعد بنظراتها ذاك

الإنكسار اللذيذ، ولم يعد يشعر بنشوة عندما ينظر إليها، أدرك حينها أن الأحاسيس تتبدل، وبإصرار شديد أراد أن يحيي أحاسيسه، حث خطاه إلى المدرسة وأخذ يبحث عن طالبة مقصرة كي يوبخها.

***

الموهوب

نظرت الصبية بانبهار للثائر الأربعيني الذي صدح صوته في ألآونة الأخيرة يندد بالظلم، وينادي بالحرية، ويدعو لمكافحة الفساد، هذا بعد أن قرر أن يتخطى أزمة بطالته عن العمل ليجد عملا جماهيريا، طوعيا نذر نفسه له. لمح الصبية ترمقه بإعجاب بينما كان يسير في الشارع رافعا رأسه بخيلاءبطل أفرزه واقع مرير، وحيث أنه مرهف الحس، وجريء، قرر أن ينفس عن كربه، وخصوصا عندما اكتشف ملكة تميزه عن غيره، وتجعل منه خطيبا مفوها، اعتلى المنبر، وأسعفته لغته وهو المولع بالأدب أن يسهب في القول، وحيث أنه مطلع ومواكب لأحداث الساعة تمادى في التشبيح، سمعته الناس بشغف المتعطش للحرية، والناقم على الأوضاع، صفقوا لحرارة اللهجة، أما هو فكان عندما يختلي مع نفسه بعد انفضاض الجموع يستعيد وقع كلماته في النفوس، كان يفعل هذا بلهفة ليرى نجاحه، لا يدري كيف تحققت شهرته بتسارع زمني مُلفت... حيث أنه الناقم الحاقد، المسكون بهواجس تؤرقه وتؤرق

الناس حوله، فكان لسانهم. استعاد نظرات الإعجاب التي سُلطت عليه، كانت نظراتهم تحمل في طياتها الأمل، والرجاء، والاستحسان، والاستعطاف، والإعجاب، استعاد كل هذه التفاصيل، وهيّأ له خياله تفاصيل أخرى أسعدته، سُر لموهبته، وقرر أن يستثمرها للصالح العام، ومع مرور قليل من الزمن وجد نفسه زعيم زمرة تألّبت حوله، واختارهم من المفوهين ليقودوا حركة أسسها بقيادته، تسلطت الأنظار عليه وخصوصا تلك الفتاة التي تراقبه كلما خرج من منزله وهي تقف على شرفة منزلها المقابل له، كانت نظراتها المعجبة توقد همته فيمتليء حماسا ويتألق في دفاعه الموهوم عن العامة، وفورا فرز نفسه، فهو الخاصة ومن تتعلق نظراتهم به هم العامة بمن فيهم تلك الحسناء العشرينية التي تراقبه، فكّر، ربما ينتشلها إلى حظيرته لتصبح خاصته، ولكنه باطل عن العمل، هذه هي الحقيقة برغم البطالة المقنّعة التي تبرزه قائدا ثوريا نذر نفسه للصالح العام. خلاصة القول: قرر أن لا يخذل أحدا، سيواصل المشوار، فالبوادر تشير إليه بالنجاح، فُتن بذاته،

وشاركه نرجسيته زمرته التي تصدح بصوته، وتتلو على الناس منهجه الذي اختطه لحراكه، طرح كثيرا من الحلول التي تؤمن الرفاهية للناس، بالغ في طرح الحلول وهو يعلم علم اليقين أن إمكانية تحقيقها على أرض الواقع ضرب من الخيال، فهو لا يملك ميزانية تتيح له التحرك، ويفتقر لكوادر أكاديمية تكرس نفسها، وتتطوع لخدمته، وليس هناك جهات داعمة لحراكه، وفي لحظات صفاء عندما يختلي مع نفسه يدرك عجزه، ومع ذلك لم يتسلل اليأس إليه، إذ تفتح ذهنه عن حقيقة أرضته عندما أدرك أن تفتيح العقول على الحقيقة وعما يجري حولنا هو بحد ذاته رسالة. أدرك أن افتراض الحلول واجب عليه، أما تحقيقها فهي ليست مهمته، ليتوسع إذن ويقول وليس على الكلام حرج، سُر لهذا الرأي، لكن الناس تنتظر الحصاد، ولا زرع يُحصد، ما علينا... أرجأ التفكير في هذا الأمر إلى أن يحين حينه، عندئذ سيبتكر مخرجا، أما ذوو الشأن، المفسدون الذين تسلقوا إلى الدرجات العليا، انتبهوا له، نُقلت إليهم أخباره ونشاطاته، شعروا بقلق لم يلبث أن تلاشى خصوصا عندما

تناهت إلى مسامعهم برامجه وحلوله الخيالية، قرروا أن حراكه ضروري ومفيد، فالتعبير عن الغضب وجه من وجوه الديمقراطية، كما أنه يتيح للعامة التنفيس عن كربها وهو بحد ذاته شفاء، والحلول الخيالية تشبه الأحلام، وللحلم سحر جميل يتسلل إلى القلوب، ويخدر المشاعر، وهو المطلوب، وهذا البؤس المحيط بنا بغض النظر عن الأسباب، وبعيدا عن التحليل بحاجة لجرعة مخدرة، فليكن هو مصدرها، امتدت أياديهم إليه تدعمه، وتشد من أزره، قوي عوده، وهلّت عليه التبرعات كطُعم يرمونه أمامه وهم يتوقعون نتائجه، لم يخب ظنهم، حيث قرر أن ينشيء مشروعا خيريا بسيطا بعد أن يقتطع الجزء الأكبر من المعونات لنفسه ولخاصته، وهكذا سارت الأمور كما يُشتهى. تذمرت الناس، غضب من غضب، ورضي من رضي، أما هو فأدرك أن رضى الناس غاية لا تدرك، أدار ظهره، لم يعد يهمه أثر كلامه في النفوس، لم يكدره سوى شأن تلك الفتاة العشرينية التي أغلقت باب شرفتها دونه، ولم تعد تراقبه أو تلتفت إليه، نظر إلى شرفتها الموصدة بقليل من الأسف، ولكنه لم

يسمح لتلك الحادثة أن تنغص عليه أو تكدر صفوه، إذ أنه حتما سيتأبط ذراع إحدى الحسناوات التي ستقدر مواهبه ولا تطعن بنزاهته.

***

المحاذير الثلاثة

قال جده لأبيه: أحذرك من ثلاثة أمور: لا تتبع أهواء نفسك، بل عليك أن تكبحها فلا تقع في شرك الغواية، ولا تسمع نصيحة صديق، وإذا نقّت ضفادع بطنك ضع حزاما يشده، وناوله الحزام وفارق الحياة.

كانت هذه نصائحه، وخلاصة فكره الذي أورثه إياه دون متاع الدنيا الذي كان لا يملك منه شروى نقير. وهكذا نشأ والده مستقيما، لا تغريه ملذات الدنيا، وكان حريصا ألا يسمع نصيحة أحد بل يتبع هواه، وما يمليه عليه عقله، ويوافق سلامه الداخلي، وكان إذا جاع تذكر حزام أبيه، هو في الحقيقة عندما يرى الحزام يتقشف، فالحزام يردعه، وكان حريصا ألا يدعو إلى وليمة إلا المقربين، وبمناسبة لا مجال لتجاهلها، كان يضع الحزام نصب عينيه فلا يسرف، ولا يقتر، وهكذا عاش قانعا، راضيا، فقيرا على باب الله كما أنشأه والده، لم يتقدم ولم يتأخر.

وعندما شب ولده تلا عليه المحاذير الثلاثة التي لقنها له أبوه وعمل بها وارتضى، ولكنه قوبل بابتسامة خبيثة من ولده جعلته يحار، لم يعترض ولده علانية، لكن ابتسامته حملت من التورية الشيء الكثير. انزعج الرجل وكبت غيظه، أما الشاب فقد أدرك أن ما انطبق على أبيه وجده لا ينطبق عليه، فهو ميسور الحال إلى حد ما، فلا حاجة له لشد الحزام، حيث كان الحزام ضرورة ملحة أمام قلة الموارد في ذلك الزمن، كما أن ملذات الدنيا وأولها صفحات التواصل الإجتماعي إغراء وغواية يتبعها الغاوون من أبناء هذا العصر، ولا سبيل لردعهم وهو أولهم، صحيح أن النساء يشغلن حيزا من تفكيره ولكنه لم يرتكب معصية بوازع ديني وأخلاقي نشأ عليهما، ووسائل التواصل الإجتماعي كما سبق وقال غوايته الوحيدة، وهي ضرورة ملحة ولا غنى عنها. أما الأصدقاء فهم قلة وندرة وإن كثر عددهم، ولا تجد بينهم الناصح الحريص على فائدتك، فالخل الوفي مستحيل كما هو معلوم للجميع، أما معارفه ومن يشاركونه في المناسبات والاحتفالات ليسوا أصدقاء، إنما

هم أناس يستعين بهم لملء فراغ، ولحاجة اجتماعية وضرورة حياتية تتناسب مع تسارع الأحداث والتطور الذي يتنامى حولنا وعلينا أن نواكبه. خلاصة القول: إن ما انطبق على أبيه وجده لا ينطبق عليه.

وسارت الأيام، ومات أبوه، وشب ولده، وذات يوم نظر إلى حزام جده المعلق، وأدرك أنه وإن تجاهل وصية والده إلا أنه يجد لها حيزا في أعماقه الدفينة، يحن إليه، ناول الحزام لولده وتلا عليه المحاذير الثلاثة، متجاهلا ابتسامة خبيثة لاحت من ولده الذي لم يعارض علانية ، لكن ابتسامته حملت من التورية الشيء الكثير.

***

الفقيد

للفقيد الرحمة،تبودلت العبارات التي تشيد بخصال الراحل، قال أحدهم أنه كان طيب القلب، نقيا كالثلج، وآخر نعته بالكرم والسخاء، وآخر بالتسامح والصفح عن زلات الآخرين، نعتوه بطيب المعشر، واللطف، ودماثة الخلق، وقالوا كان متميزا ومتفوقا في مهنته مما جعله من الناجحين، وكان لا يسد بابه أمام طالب حاجة سواء كانت معنوية أو مادية، حتى أن أحدهم ادعى أنه كان يراه في منامه ساطعا كنجمة... قالوا أشياء كثيرة نسيت معظمها لتوالي العبارات التي كانت تتلى على مسامع متلقي العزاء، وفكرت مع نفسي، وتذكرت أن هذه الصفات تتكرر في كل مجالس العزاء، وتُتلى بسخاء ما دام قد غادر الميت دنيانا، ولن يسمع إطراءاتنا التي بخلنا بها لنرددها على مسمعه في حياته، ولو تجردنا وذكرنا الحقيقة فسندرك أن فقيدنا كان لا يخلو من صفات سلبية تناسيناها الآن، ولكننا كنا نتناسى إيجابياته في حياته، وخصاله الحميدة التي بهرجناها هي خصاله على كل حال، ولو نزعنا عنها عبارات

المبالغة التي جمّلتها في مجلس العزاء لتوافق وتتناغم مع مشاعر ذويه ومقربيه إلا أنها لا تخلو من الحقيقة، ولكننا كنا ننسى طيب خصاله في دنياه، فوجدتني من حيث لا أدري أشكر الموت لعظمته، أشكره لأنه يتيح لنا لحظات صدق نستشف فيها حميد الخصال للفقيد، ونترك عكسها ليرذلها التاريخ وينساها، ولكن العجيب أن هذا لا يتحقق، فبعد فترة من الزمن ليست ببعيدة ننسى ما قلناه أمام اللحد، ونستذكر السلبيات لفقيدنا ثم نقول: لا تجوز على الميت إلا الرحمة، وبهذه العبارة ننهي ثرثراتنا ونسد الباب على ما تخفيه أعماقنا من أحقاد، وغيرة، وكراهية، وينتهي الأمر إذا كان ينتهي.

نظرت للجالسين في مجلس العزاء، أخذوا يتململون بعد أن أعرب كل منهم عما في جعبته من إطراءات ومديح، وأبدوا حزنهم على الراحل، وقبل انفضاض المجلس تقدم شاب عشريني وشد على يد نجل الفقيد وقال له: لا تجوز على الميت إلا الرحمة، ورمقه بنظرة ذات مغزى، فتململ نجله وشعر بحرج الموقف وفكّر، قد يكون لوالده

أعداء، ولكن أنّا لعدو من أعدائه أن يأتي لتشييعه، من أين ظهر هذا الشاب؟ نظر إليه، ألفاه لا يزال يحدجه بنظرات تحمل في طياتها معاني كثيرة، قال له بتحفظ: كلامك ملغوم، ونظراتك كذلك. قال الشاب: الفقيد كان رئيسي في العمل، وقد طردني إثر فرية وصلت إليه لم يتحقق من صحتها، وأنا لدي دليل براءتي، ولم يتح لي فرصة الدفاع عن نفسي، فأنا حاقد عليه. قال نجله: نعرفه عادلا، ورئيسا محبوبا. قال الشاب: لمداهنيه هو محبوب، أما عكس ذلك فلا. تنحنح نجله متلعثما، وتدخل أحدهم وأمسك بذراع الشاب وهمس في أذنه أن يؤجل العتاب الذي لا نفع من ورائه ما دام الراحل قد غادر دنيانا ولن يستمع لأدلة براءته كما يدعي، فليؤجل هذا إلى وقت آخر. صرخ الشاب: أعرف أني أنفخ في قربة مخرومة وقد رُفضت من عملي وانتهى الأمر، ولن يعود الفقيد إلى الحياة ليستمع إلي ولكني مخنوق، أريد أن أنفس عما أكابده من ظلم وكبت وألم، ناهيك عن فقداني لمصدر رزقي. أنا أبحث عن عمل الآن، ولكن شهادته ضدي تقف عائقا أمام تبوئي لوظيفة محترمة، فلو كنت

مكاني ستلومه في مماته ، وصرخ: نعم أنا ألومه وأحمّله مسؤولية ضياعي، وأعلم أني أفعل هذا لأنفس عن بالون يكاد ينفجر في أعماقي، وأقول ها أنا أرفع أمري إلى الله ليرى ظلامتي وأنا لحكمه أنصاع. قال هذا وغادر المجلس أمام دهشة المعزين، أما نجله فقد تلعثم وشلت المفاجأة لسانه فلم ينطق بحرف، تبادل الحاضرون النظرات، ولم ينتظروا الزمن الذي افترضته في بداية سردي للواقعة ليبحثوا عن سلبياته، بل بدأ الهمس بين الجالسين، وحتما هو همس قادح لسلبيات طفت على السطح، وقد تبدو أكثر مما كنت أتوقع، حيث عجت القاعة بفوضى مكبوتة، أطرق ذوو الفقيد وقد مسهم ضيق وكرب، أما الجالسون فبعد أن ينهي أحدهم انتقاداته التي همسها في أذن جاره يرفع عقيرته بالدعاء للميت ويقول للفقيد الرحمة.

***

دموع من رمال

أخرج عن صمتك يا أنا، تحدث فالحزن يتضاعف مع الصمت، أنفث سموم همك فالفقد جلل، والمصاب عظيم. سالت دموعي بصمت واستحالة، فالدموع تقول أحيانا ما يًعجز اللسان عن النطق. صخرة جاثمة على صدري، وتلك الغصة في حنجرتي تحبس صوتي، وتمنعني من التنفيس بصرخة تُشفي غليلي مما أعانيه من قهر وألم. أريد أن أختلي مع نفسي ، فالمساحة في صدري أوسع لتحتضن حزني، وتتفهم فجيعتي، ولكني أكاد أنفجر...

تذكرت وداعته، ابتسامته، براءته، وسامته، إقباله على الدنيا التي خذلته، وتخلت عنه، وسددت سهمها إليه لتسلمه إلى أنياب موت محقق إثر مرض عضال اختاره دون غيره من الأتراب ليحل فيه، ويتغلغل في جسده، لم يكتف بمرور عابر، بل فتك به، وبدأ ينهش ويغوص، ويتعمق إلى أن لامس الروح فأقبل الموت متهللا، وأنشب أظفاره، لماذا

أيها الموت اخترت فلذة كبدي؟ كنت أخذت والدي السبعيني الذي شبع من الدنيا... آه... لا أحد يشبع من دنياك يا رب، أدرك هذا وأستغفرك إذ لا أتمنى الموت لأبي، أنا على يقين أن فقده سيحزنني، ولكن موت ولدي يجعل حزني مضاعفا، أستغفرك يا ربي، لك أن تختار عبيدك لتضمهم إلى حديقتك، فأنت تختار الأفضل، دعني أعتقد هذا لتخف وطأة ألمي. نعم اخترت ولدي الأفضل... الأفضل، اخترته لنقائه فهو لم يرتكب إثما من الآثام التي أُقحمنا عليها نحن الكبار، نعم أقول أُقحمنا عليها ولم نختر أن نكون خاطئين، فالخطيئة كما تعلم يا إلهي تحدث نتيجة ردة فعل تعرضنا له سواء كان مباشرا أم غير مباشر، نتيجة إغواء وضعته أمامنا وما أكثر إغواءاتك... نحن الفقراء أشد عرضة لنقع في الشرك، فالفقر قد يقود أحدهم للاختلاس، فمنهم من يختلس رغيفا يسد به رمقه، ومنهم من يختلس خزنة أموال، كلاهما مختلس، كل جائع بطريقته، لا أبرر الذنوب، ولكني أقول أنك وضعتنا أمام اختيارات صعبة، ومغريات كثيرة، وعلينا أن نجتاز امتحانك،

فينجح القليل القليل... القليل، فترفق بنا يا رب، وتذكر أن ولدي لم تمهله الحياة لاختباراتك، فهو طفل بريء، ناصع، وكان حسن السلوك وقد أحسنت تربيته، نعم أنا الخاطيء المغموس في وحل خطيئتي ربيته على الفضيلة والاستقامة، لم أشأ له مصيرا يعذبه كما أتعذب، أنا الذي اختلست مالا من الشركة التي أعمل بها، ونُسبت التهمة إلى زميلي ولم أعترف، أوقعته بسوء فعلتي وتنصلت، ولم يُكتشف أمري، أعلم أنك وحدك الذي تعلم خوابي الأمور ولا مجال لخديعتك، أنا أعترف لك بإثمي يا رب، ولا أطلب الرحمة لأني فعلت فعلتي جشعا، فقد كنت أعيش مستور الحال براتب متواضع، أعذرني لكنه لا يكفي لنحيا حياة مرفهة ... بل كان يكفي لو رضينا بكفافنا، فأنت أوصيتنا أن نصلي ونقول: (أعطنا خبزنا، كفاف يومنا) ولكني كنت أطمع بأكثر من الخبز، وكان متوفرا، ولكني دوما كنت أتطلع إلى المزيد، فالمغريات حولنا تبهرنا بجمالها، وتسلب عقولنا ببريق أخاذ يجذبنا نحوه ، فنقع في الشرك، شرك نصبته لنا لنكون خاطئين، أستغفرك مرة أخرى، ولكنه

امتحان صعب... مددت يدي... وكان انتقامك عظيما، قاسيا، يفوق قدرة احتمالي... سلبت حياة ولدي لتفجعني به، أهي عقوبتي يا رب؟ أنت تريدني أن أقبل بها؟ ولكني أرفضها، أرفض أن يكون ولدي كبش فداء... أستغفرك يا رب، أنا المفجوع أتطاول عليك سبحانك، أعف عني... ها أنا أرضخ لمشيئتك، أخذت ولدي وأنا رضيت، ولكن ليكن مثواه الجنة، لا تحمله وزر إثمي فهو بريء، وأنت العليم العادل الغفار... قل لي ماذا أصنع لتكف غضبك عني؟ هل أعترف بذنبي؟ كيف أفعل هذا وقد بددت المال الذي سلبته، وزميلي يقضي عقوبته في السجن، لكني أنا الأسير بقيود خطيئتي، ألا يكفي هذا جزاء يعذبني؟ ذهبت إلى بيته، وقدمت مساعدة لأطفاله، منحتهم الفتات من المال المسلوب الذي ابتلي به وهو في حوزتي، ولكني لم أتخل عنه، ألا يشفع لي هذا المعروف الذي أسديته... لم أزره في سجنه، أخشى أن تفضحني نظراتي عند المواجهة، ولكني لن أتخلى عن أطفاله، سأزورهم بين فينة وأخرى ، وأقدم لهم حسنة. تشكرني زوجته فأذوب خجلا وأطأطيء

رأسي ، أنا الخاطيء الذي يحاول أن يكفر عن خطيئته أكتوي بعذابي، تعذبني نظرات الامتنان، يعذبني ضعفها وهي تنظر إلي لأطمئنها وأبرّد نار شكها وأقول لها أن زوجها بريء ولا أفعل، أشيح بوجهي عنها ولا أفعل، نعم أنا لا أنوي الإعتراف، فانتقام الإنسان من أخيه الإنسان يكون شرسا، فتاكا، أخاف عقاب الدنيا وأنا أعلم أنك شديد العقاب يا رب، لكنك عادل فأرضى بفتكك، أرضى بعقابك مهما كان قاسيا، لكني لا أرضى بعقاب بشري ظالم، أنا الظالم الذي ظلمت زميلي أخشى ظلم القاضي وقد أقسم أن يحكم بالعدل، ماذا أصنع؟ سأبوح لك بسري... بعد قليل سأكون جثة هامدة، وأُوارى الثرى لألقاك، وأضع نفسي بين يديك، فافعل بي ما تراه مناسبا، عاقبني، ولكن ترفق بزوجتي وطفلتي اللتان سأهجرهما برحيلي عن دنياك، نعم هذا هو سري، سأنتحر يا ربي، سأفعل هذا وأنا أعلم أنك تنهانا عنه ولكنها معصيتي الأخيرة التي سأقترفها ليرتاح ضميري... إذ سأترك رسالة اعتراف

تبريء زميلي من تهمة باطلة أوقعته فيها... سأفعل هذا وأموت شغفا بلقياك لأمتثل لقضائك العادل.

***

كابوس

أشعر بكآبة وملل، وتيمنا بقول شاعرنا العظيم أبو العتاهية:

كذا قضى الله فكيف أصنع.. والصمت إن ضاق الكلام أوسع

قلت هو ذا، فالصمت يناديني، ولجت حجرته الجرداء على قمة جبل، الهدوء يخيم على المكان، حيث لا تُسمع دبيب نملة مما أربكني الوضع، ومن حيث لا أدري شعرت بغمة تطبق على صدري، بل إن كآبتي تضاعفت. قلت في نفسي : لا بد من الكلام، فلوّح الصمت بيده أمامي متوعدا لو نطقت، أصابني الهلع، وأبديت رغبتي في الانعتاق، دفعني بلطف خارج حدوده محتفظا بصمته الرهيب، تنفست الصعداء، وحاولت أن أعبر عن فرحي ، وأشكر الله على الفرج، إلا أن الكلمات أعلنت عجزها عن الإنفلات من عقلة لساني الذي أخرج همهمات وحشرجات ممجوجة، أطلقت العنان لطاقتي محاولة الصراخ، فخرج مني زفير متقطع، أدركت أن الصمت سلبني القدرة على الكلام، قلت

في نفسي: أيكون حبي للصمت أحيانا فخا يجعلني أقع ضحيته ولا أستطيع الفكاك؟ صعدت إليه في مقره لأبدي رأيي وأطلب الخلاص، لكنه رفضني ولم يتح لي المثول أمامه، كتبت له رغبتي في أن يستعيد هبته التي أكرمني بها وأفقدني النطق، وتوسلت إليه أن يفعل هذا بلا توان. ضحك مني شامتا، ونظر إلي مليا وكأنه يقول: اخترتني لتخزني أوجاعك في حضني، وتدفنيها في صمتي، وأشار إشارات يستهزيء بنا نحن البشر، وكان يعبر بإيماءاته أننا ثرثارون ولا نقدّر طاقته، ولا نستطبع التعبير بأدواته اللامحدودة وأهمها النظرات التي هي خير وسيلة للتعبير، فلكل نظرة لغتها ومعانيها التي تتشكل حسب ما تقتضي الظروف، أشار إلي أن أخرج ، وأبدى رغبته ألا يراني مرة أخرى، ونظر إلي نظرات تطمئنني أنه سحب هبته عني لأني ببساطة لست أهلا لها، وما أن وصلتني إيماءاته ونظراته وتعابيره وترجمتها حتى أشرقت أساريري، وأطلقت ساقي للريح مبتعدة عن وكره المهيب، وحمدت الله على نعمة الكلام، وصرخت لأتأكد من خلاصي، فهرعت إلي شقيقتي

وأنا أصرخ في فراشي، وقالت: إسم الله عليك، ما بك؟ فتحت عيني ونظرت حولي إذ بي أتململ في فراشي، رفعت يدي إلى الله أشكره على أن ما كان ليس إلا أضغاث أحلام، ولكني مع ذلك أدركت أن للصمت بلاغة لا يتقنها فن الكلام مهما تألق وسما وحلّق، ومهما اكتست عباراته بحسن البيان وببليغ الكلم، يبقى عاجزا، فهناك أحاسيس لا نجد كلمات تعطيها حقها وتفرزها بنزاهة الصمت، فللصمت ملكة تجعله سيدا جبارا، قديرا، عظيما. كانت نظراتي ساهمة بينما أفكاري تتسلسل في ذهني تباعا، قالت شقيقتي: ما بك؟ قلت: يبقى للصمت مكانته الفريدة، ونهضت من فراشي وبدأت يومي كالمعتاد.

***

الربـان

يتمايل القارب على سطح الماء، اعتاد الربان أن يصطحب حبيبته في جولة على متنه كل يوم، كانت سعيدة بهذه الرحلة المسائية الهادئة، وكان يسعد لسعادتها، أما هي فكانت تشعر براحة واطمئنان خصوصا أنه يفهم لغة البحر، ويراوغه، ويقود القارب إلى شاطيء الأمان بحنكة ودراية.

اليوم فاجأتهما سمكة قرش شرسة، وهمت أن تبتلع الربان الذي نظر إليها باستعطاف وقد أذهلته المفاجأة، السمكة عنيدة، لم تأبه بنظرات التوسل ، ولا بخوفه وضعفه ومذلته... لكنه مصمم على النجاة، نظر إلى السمكة نظرة ذات مغزى، وغمز بعينه متواطئا وأومأ إلى حبيبته المكتنزة، فهمت السمكة مقصده، أما حبيبته فقد ألجمتها المفاجأة وشلّت تفكيرها الصدمة، والقرش لم تمهلهاالوقت لتستوعب الأمر إذ انقضت عليها في التو واللحظة، وابتلعتها في ثوان معدودة وغادرت.

تنفس الصعداء، وشكر الله على الخلاص، أصبحت تأتي السمكة إليه كل يوم فيلقي لها برفيق أو عزبز يصطحبه معه لهذه الغاية، متبنيا نظرية التضحية بمن نحب من أجل استمرارنا، رحبت السمكة بنظريته وأثنت عليه، أما هو فقد أجزل لها العطاء، وضحى بأصدقائه وجيرانه وأقاربه وأخذ يميل إلى معارفه ليضحي بهم كذلك، كان يفعل هذا بإخلاص شديد للقرش.

اليوم بعد أن ابتلعت أضحيته التي قدمها لها فاتحته أنها لا تكتفي بضحية واحدة، ثم لمعت عيناها ونظرت إليه باشتهاء وفجور، أصابه الفزع، قالت: أنا أحبك وسأتبنى نظريتك بأن أضحي بك من أجلي، وقبل أن يعترض وبسرعة البرق انقضت عليه وابتلعته، غير مبالية بنظرات العتاب التي صدرت عنه، ولم تكتف بذلك، بل هشمت قاربه، وعندما لامتها أسماك القرش على تسرعها قالت: لا تقلقوا... وأومأت إلى قارب يتهادى على مرمى بصرها مقتربا ... وابتسمت.

***

العجوز

جلس العجوز على عتبة بيته يرقب غروب الشمس، كان كلما حان وقت الغروب يفعل هذا تخليدا لذكرى زوجته الراحلة، عندما كانا يجلسان معا ويحتسيان كوبين من الشاي أمام الشمس الآفلة، رحلت زوجته بعد أن سحبها الموت عنوة من بين يديه، وأبقاه وحيدا يجتر الذكريات، إلا أنه يرفض الرضوخ للواقع، ولا يزال يصر أنها موجودة... هي في الحقيقة لم تغادر حياته، ولكنه كان يمعن في استحضارها، حيث أنه عندما يجلس ليتناول طعامه يهيء له خياله أنها لا تشاركه الطعام لأنها مشغولة في شأن من شؤون المنزل، ويلومها على أنها لم تنسق عملها لتمنح نفسها وقتا تشاركه فيه الطعام، أو احتساء الشاي، أو لعبة الباصرة مثلا، ومع ذلك يلين ويغفر إهمالها إياه وينتظر.

أما اليوم في هذا المساء طال جلوسه على العتبة، غربت الشمس، وزحف الليل وهو ينتظر... انتصف الليل وهو قابع في مكانه ، صمم

ألا يدخل البيت ليهجع للنوم إلا إذا افتقدته وأتت لتمسك بيده ويغادران معا إلى مخدعهما الذي هجره مذ رحيلها، حيث أصبح ينام في غرفة المعيشة، ويفتح التلفازليكون سميره، هو في الحقيقة لا يغلقه، وغالبا لم يكن يصغي لما يبثه من برامج، إلا أنه يستأنس بصوته. فهو بعد غياب زوجته لا يجد من يبادله الحديث، فكان هذا التلفاز يقوم بالمهمة... لكنه صنم يردد عبارات جوفاء، يلقي كلامه جزافا، يتحدث ولا ينصت لمجالسه، ولا يبادله الحديث، هو يفرض عليه ثرثرته، ومع ذلك كان يرضى بهذه الثرثرة.

اليوم هو رافض لكل شيء، رافض أن يقر ويعترف بموت زوجته، بل هو مصر أنها أهملته ، ولكن لأنها نائمة في الداخل، ولا تأبه به وهو ينتظرها في جلسته أمام البيت، ويستغرب أن الليل قد انتصف والبرد يزحف، وهي متلفعة بالأغطية، تغط في النوم، صرخ يناديها، زمجر وشتم، وعندما لم يجد صدى لصراخه وقف كالمجنون، واقتحم غرفة نومها المهجورة، نظر ألى الوسادة، وانقض عليها في الحال، أخذ

يمزقها، أمعن في إتلافها، تناثر الريش على الأرض. أخيرا همدت قوته، وجلس قربها ينعف الريش في الهواء ويبكي، ثم نهض ومسح دموعه، ولملم الريش في ناحية وقال في سره: غدا تجمعها أم جمال وتصلح ما أتلفته، هي حتما ستغفر طيشي، ثم انسحب إلى غرفة المعيشة وفتح التلفاز ، واستلقى لينام.

***

المقعد

نظر من النافذة، الغيوم تسدل ستارا داكنا يحجب الشمس، حلقت أفكاره بعيدا إذ راودته ذكرى فتحية، تلك الفتاة المختلة عقليا عندما أتت مع والدتها لزيارتهم ذات صباح، ألقت تحيتها قائلة: مساء الخير، وعندما أخبروها أن الوقت صباح أجابت بثقة: الدنيا عتمة... والعتمة مقرونة بمساءاتنا، هذا ما تدركه فتحية، كان يومها الجو كئيبا كحاله اليوم. أين هو من ذلك الزمن الموغل في القدم عندما كان غلاما في الخامسة عشر.

شعر بالأسى عندما أدرك لوهلة أن فتحية مع تخلفها العقلي أفضل منه حالا اليوم... تمنى أن يكون مختلا، على الأقل لن يتأثر لضعفه، ولن يدرك أبعاد مصيبته. هو مدرس في مدرسة ثانوية أو بالأصح كان كذلك قبل أن يصبح طريح الفراش متسربلا بعجزه بعد أن أقعده المرض.

سمع وقع خطواتها، قطب رغما عنه عندما أقبلت زوجته إليه، وساعدته كي يجلس على الكرسي المتنقل قبل أن تغادر إلى عملها حتى يتمكن من التجول في الشقة، قابلت تقطيبه بابتسامة تجاهلها، فهو يكره المجاملات والتملق... ربما كانت تبتسم بطيبة محضة، إلا أنه يرفض هذه الإبتسامة، يرفضها وكفى... غادر نجلاه كذلك إلى دراستهما، حسن شاب جامعي، ومصطفى في الثانوية العامة، سمع اصطفاق الباب وجفل، وعندما أقفل الباب بالمفتاح شعر بالنهاية، نهاية اتصاله بالعالم الخارجي، أدرك أن عالمه لا يتعدى مساحة هذه الحجرة. نعم هو يجلس على كرسي متحرك، إلا أنه لا يرى ضرورة لمغادرة موقعه، زجاجة ماء ترقد عن يمينه على منضدة صغيرة، إلى جانبها هاتفه النقال الذي يذكره بعجزه، حيث أهداه له حسن لسهولة التحكم به والوصول إليه بالمقارنة مع الهاتف الأرضي، أقنعه اللعين أن يقتنيه، هو أسهل من غير شك، لكنه يكرهه لسهولته، يكرهه لأنه يذكره بقلة حيلته، بضئالته ، بلا أهميته، باستثناءات شتى تهمشه وتقزمه، هو يذكر جيدا كيف سقط

من يده ذات يوم، حينها تبسم، وشعر بالسرور لأنه أصبح بعيد المنال كالهاتف الأرضي تماما، شعر بالتفوق عليه وهو مُلقى على الأرض بإهمال، لم يحفل برنينه، صم أذنيه ، كان منشرحا. قال له حسن: هو أداة طيعة، إعتبره المارد وأنت السيد المطاع، ليكن كما تريد يا حسن... تناول الهاتف ونقر رقم أحد أصدقائه، مدرس قديم، رد الصديق: سأتصل بك لاحقا، أنا الآن في حصة... تأفف وبرطم، ثم أقفل الخط بغلظة، وقذف الهاتف بعنف على الأرض، تحطم... ضحك بفجور وتشف وغل، لقد حطمه وانتصر عليه لأنه لم يلب الطلب، انتقم من المارد وقتله، سيان كان سبب الصد الذي قوبل به، إلا أن المارد أخفق وجزاؤه الموت. قطب فجأة عندما أدرك أن انتصاره وهمي، لا قيمة له، فكّر ماذا سيقول عنه الصديق؟ لقد أنهى المكالمة معه بجلافة، إيه... ليته يشتمه، أو على الأقل يعبر عن استيائه، ولكن هيهات... إنه سيعذره من غير شك، وعندما يعذره تكون الطامة الكبرى، هو يكره أن يُدارى، هذه المداراة التي تشعره بتفاهته. هو مشلول، هذه حقيقة دامغة لا محيد

عنها، لكن عندما تُشل الإرادة يقفز الموت متأهبا ... وهو لا يريد أن يموت الآن، ولكنه يشهد موته وهو على قيد الحياة، صعب على الإنسان أن يكون ميتا ويتنفس، إما الموت وإما الحياة، أما أن يعيش على هامش الحياة، هذا العذاب بعينه، وهم بمداراتهم يعذبونه، يدفعونه إلى حافة اللاحياة واللاموت، كيف يقنعهم أن يعاملوه معاملة الإنسان السوي، فكّر... ولكني بتصرفي هذا لم أكن سويا... كنت جلفا، فظا، مسيئا، تنهد بأسى... أنا على يقين أنه سيتسامح معي، صرخ: كلهم هكذا، منافقون، أفاقون، يتصنعون الرأفة وقلوبهم قُدت من الصخر، همس: لا... أنا أبالغ، أكذب، أتجنى ... الطيبة موجودة في قلوب الكثيرين ولكني أرى الوجه الآخر للحقيقة، هذا الوجه لا يراه إلا انسان ناقص أو عبقري، ولا أظنني عبقريا، نعم أنا ناقص بدليل هذا المقعد الذي يضمني، فكّر... لست ناقصا، أنا فقط مقعد، لكن فكري حر طليق، لينطلق كما يحلو له، وفي نهاية المطاف سيعود إلي ليلتحم بي، إذن أنا أقيده، أنا المتسمر على هذا المقعد لا أسمح له أن ينطلق بعيدا، فهو

أسيري، أنا ببساطة أحجّمه، أخنقه، أغتاله، أنا لا أبرح حجرتي، بإرادتي لا أفعل هذا، وما يمنعني غير ضعف إرادتي التي أدعيها، وكآبتي كذلك تمنعني... لا ... لا ... لست كئيبا بدليل أني سأبرح هذا المكان، ويصرخ بعصبية: نعم سأبرحه. أخذ يقود مقعده بتوتر، كانت قيادته سريعة نوعا ما مما جعله يتعثر بقطع الأثاث، انقلب المقعد في غرفة المعيشة ، وسقط على الأرض لاهثا.

***

رضوض بسيطة ظهرت عليه إثر سقطته، عولج منها، واستُبدل المقعد بآخر أفضل من سابقه، المقعد يتجدد ويتبدل، لكن كيف يستبدل الإنسان القابع في أعماقه. مضى على الحادثة أسبوع كامل وهو عازف عن استقبال أي كان من الأقارب، أو الأصدقاء، أو حتى أي أحد من افراد العائلة. كانت زوجته تُدخل صينية الطعام وتضعها على المنضدة أمامه ، وعندما تدلف الحجرة يشعر بانقباض لا يبرحه إلا بعد أن تغادر، كانت تدخل بصمت، فقط تلك الابتسامة التي تحيره، لا شك

أن ابتسامتها بريئة، لكن الوجه الآخر للحقيقة يحرّف أي معنى للنقاء، وهو إذ يشوه الحقائق ينتشي، ويتشفى لكن ممن...؟ لحظات انتشائه سرعان ما تزول ويبقى حقده على لا شيء، أو على كل شيء. إنه ببساطة يتعذب، ولا يدرك أنه هو نفسه أداة التعذيب والمعذّب في آن... فجأة اقتحم عليه حسن خلوته.

-بابا، أريد أن أتحدث إليك.

أشاح بوجهه بامتعاض، لا فائدة، هو لا يريد أن يتكلم، نظر حسن، صينية الطعام أمامه لم تّمس.

-لم تتناول غداءك بعد، هل أساعدك؟

نظر إليه بصمت، كانت نظراته فيها تعنيف ولوم وسخرية، انكمش حسن أمام نظراته ثم تمالك نفسه وصمم أن يبادر بأسلوب جديد، حيث غرف من الصحن وقرّب الملعقة من فم أبيه وهو يبتسم.

هو أيضا يبتسم نفس ابتسامة أمه التي تحمل في طياتها عطفا يمزقه، ويجعله حبيس دوامة عجزه، سحب الملعقة من يده وأطاح بها بعيدا، ارتبك حسن وبقي واجما للحظات ثم.

-بابا...

-قاطعه: اخرس واحضر لي ملعقة غيرها، سأتناول طعامي عندما يحلو لي ذلك. تبسم حسن، كانت تعابيره تعكس انشراحا وبهجة.

-بابا مبروك... كسرت حاجز صمتك إذ نطقت، أنا سعيد... سعيد لأجلك، نظر إليه بغضب بينما هرول حسن مسرعا، وأحضر ملعقة وضعها أمامه، همّ أن يتحدث إلا أن نظرات أبيه الغاضبة جعلته يغادر فورا، كان مرتبكا وفرحا في آن، قال لأمه: شتمني. وعندما علمت أمه تفاصيل ما دار بينهما استبشرت خيرا، وارتأت أن يذهبوا إليه جميعهم ويحادثوه.

نظر إليهم وأشار بيده يحثهم على مغادرة الحجرة، تبادلوا نظرات حائرة، قال مصطفى: قل شيئا... أطردنا أو اشتمنا لو شئت... فقط تكلم. أشاح بوجهه عنهم بامتعاض، نظروا إليه مستغربين بينما انسحب حسن ساحبا أخاه معه، ترددت الأم في الانسحاب إلاّ أن نظراته الرافضة، الحانقة ، المتبرمة جعلتها تلتحق بولديها. شعروا بالخيبة.

***

أخيرا قرر مصطفى أن يطرق بابا جديد حيث انطلق إلى أبيه متفائلا.

-بابا ، أريد مساعدتك في حل هذه المسألة.

نظر إليه بوجوم، تابع:

-كونك أستاذ رياضيات أثق به، لا لأنك والدي ولكن بشهادة طلابك وزملائك المدرسين.

-لم أعد مدرسا كما ترى.

-أنا في الثانوية العامة، ولا يرضيك أن أتراجع.

أدنى الدفتر من أبيه الذي نحاه عنه بعيدا بظاهر يده.

- أتركني وشأني واذهب لشأنك.

- لكن شأني حله في يدك.

-اِستعن بمدرس خصوصي، وسأدفع لك أجره.

- لا أثق بمدرس غيرك.

- لا طاقة لي أن أفعل شيئا لأجلك، إستعن بالأستاذ لطفي.

كانت لهجته لا تخلو من سخرية مبطنة، نظر إليه مصطفى مستنكرا مما استفزه وصرخ:

- نعم لطفي الذي أقفلت الخط في وجهه، وأسأت إليه ولم يتذمر، استعن به واغرب عن وجهي.

لماذا اختار لطفي بالذات، هو يريد أن يلتقيه، يحادثه، يقرأ دخيلته وما علق في نفسه من أثر تجاهه، هو يبحث عن السلبيات دائما وإن ضئلت، لكنه صياد ماهر، يلتقطها بخفة، ويلمعها، ويسلط أضواء قلبه عليها فيعميه الوهج ، ويزجه في دوامة من القلق والتوتر والسخط والغضب والنفور، فينكمش على نفسه لائذا بصمت بينما يجيش في صدره بغليان لا يبرده غير الانتقام، لكنه عاجز، كيف ينتقم؟ ليس بالضرورة أن ينتقم بيديه، هو يفعل هذا بلا وعيه، من خلال سلوكه، إذ يخلق جوا متوترا داخل بيته، وهو إذ يفعل هذا يشعر بلذة غريبة، سرعان ما تتحول إلى حزن، نظر إلى مصطفى وصرخ:

– ماذا تنتظر؟ قلت لك اغرب عن وجهي.

أخفق مصطفى في تنفيذ خطته، شعرت الأم بالإحباط، وارتأى حسن أن يتمادوا بالمراوغة حيث استدعي لطفي الذي تضامن معهم لاقتحام عزلة الأب. التموا حوله، نظر إليهم باهتمام، تحولت نظراته إلى نظرات عابثة، ساخرة، ثم أطرق بخبث ينتظر مبادرة ما.

رد التحية ببرود محتفظا بصمته وإطراقته، جلسوا حوله صامتين، تبادلوا النظرات فيما بينهم، أخيرا قال لطفي:

لطفي: أنت مدرس كفء، ولكني سأساعد في تدريس مصطفى لئلا يثقل عليك.

-الأب: نعم فأنا ضعيف متهالك، أعيش على الهامش، لا أقوى على تدريس ولدي، فجئت أنت تتلطف. أنت الودود اللطيف، وأنا الجلف السخيف.

-قالت الأم بتحد: لكنه حضر بناء على رغبتك.

انكمش لطفي قليلا، بينما نظر إليه حسن وغمز بعينه مشجعا على المتابعة، تبسم لطفي متواطئا، لاحظ ذلك الأب فتحفز للمجابهة.

-قال الأب: لبيت دعوتي مع أني أقفلت الخط في وجهك.

-لطفي: لا أريد أن أتذكر هذا الآن.

-الأب: لست غاضبا؟

-لطفي: حتما لا .

-قال الأب مستفزا: ألا تثور لكرامتك؟

نظر إليه لطفي منزعجا، لكنه كتم غيظه وابتسم ابتسامة واهية.

-قال الأب بتحد: لم تجب.

-لطفي: أحتمل اعتلال مزاجك لأني أحبك.

-الأب: أنت تتغاضى عن إساءاتي، فأنا مقعد عليل، وأنت متلطف جميل.

-لطفي: أنت صديقي قبل كل شيء، وإن هي إلا وعكة تمر بها ، ومن يدري ، قد تتحسن.

-قال الأب بجلافة: لا تحاول التخفيف عني.

-قالت الأم: أنت تتكهرب إذ نلاطفك، وتغضب إذ نتودد إليك.

نظر إليها حانقا، بينما تبسمت وقالت:

الأم:نحن نفعل هذا لأننا نحبك.

-الأب: لماذا تبتسمين الآن؟

نظرت إليه حائرة بينما تابع.

-الأب: شفقة؟

-قالت بتحد: نعم شفقة.

-صرخ: لا أريد شفقة.

-قالت بتحد أكثر: بل تريد... تخيل لو عبسنا في وجهك، وأهملناك، هل كان يرضيك هذا ويخفف عنك؟ نعم هي شفقة ورحمة أنت تستحقها.

-صرخ: لا أريد شفقة... لا أريد شفقة. ثم نظر إلى لطفي وصرخ: دونك الولد، درّسه، واتركوني لشأني.

واظب لطفي على الحضور يوميا بحجة تدريس مصطفى، كان يدرسه في حجرة والده بعد أن يلقي تحية عابرة، ولا ينتظر ردا، ويباشر فورا بالدرس. كان الأب يتجاهلهما ثم أخذ يستمع إلى الدرس بلا مبالاة، تحولت تدريجيا إلى اهتمام، وذات يوم أثناء الدرس قال الأب:

-الأب: مصطفى... أشكر الأستاذ لطفي، أتعبناه، أنا سأدرسك.

***

آخر الشهداء

المجد والخلود لشهدائنا الأبرار، قرأ هذه العبارة عندما كان طفلا، عندما تعلم فك رموز الأحرف، حينها لم يكن يعرف ما معنى أن يكون المرء شهيدا، حتى أنه لم يكن يدرك أن للعمر نهاية، وأن المرء يموت.

مرت الأيام وفهم مغزى العبارة، وازداد إيمانا بحقه السليب... أدرك أن تمسك المرء بحقه يجعله يبذل من نفسه الكثير، وقمة البذل الشهادة، تمنى أن يصبح شهيدا، ابتسم عندما أدرك أن ما يفكر فيه الآن هو نزوة عابرة، فلكي يصبح المرء شهيدا عليه أن يتسلح بوعي فكري ناضج، عليه أن يحب الأرض، أن يعشق ترابها، أن يرفض الظلم، أن يعشق الحرية، أن يحترم الإنسان ويحافظ على كرامته، لكن هذه الخصال ليست بعيدة عنه، فلماذا لا يكون شهيدا، ضحك رغما عنه، ضحك ببساطة لأنه منغمس في هموم الحياة اليومية، كان همه أن يؤمن احتياجات منزله، هو الآن زوج وأب لطفل، علمه العبارة المنقوشة في

ذاكرته ووجدانه، لم يعلمه مغزاها، هو على يقين أنه سيدركها بالفطرة والبديهة كما أدركها هو... نظر حوله... الشارع يغص بالمارة، وبرغم كثرة الشهداء، الناس يتناسلون ويزدادون تمسكا بحقهم وأرضهم، وذات يوم من أيام تتكرر ، توزع فيه الأطفال في الشوارع يقذفون الحجارة، نظر إليهم بلهفة ولوعة، إذ حتما سيسقط منهم شهداء، لكن هل تسلح الطفل منهم بوعي ونضج فكري يصنع منه شهيدا؟ أم هو الغضب الموروث؟ أم البحث عن طفولة ضائعة؟ أم هو حلم محطم يبحثون عن بقاياه؟ هو كل هذه الأشياء وأشياء كثيرة غيرها تستغلق علينا نحن الكبار، والأهم من ذلك أن الطفل الشهيد يسقط نتيجة اعتداء شرس من عدو مستهتر، نظر إليهم بإعجاب وإكبار، أدرك أنهم في تمردهم كسروا حاجز الخوف، حلّقوا فوق الظلم وهزموه، حث خطاه نحو بيته يتفقد طفله، لم يجده بالبيت، انقبض صدره، لام زوجته كيف سمحت له أن يخرج في هذا اليوم المأزوم، صدق حدسه، إذ جيء بولده محمولا يتضرج بدمائه، نظر إليه بذهول، ثم أدرك أن طفله تفوق

عليه، أحس بالجبن والخنوع، وأزفت اللحظة ليعلن تمرده، وفي التو خرج إلى الشارع كالمجنون بغية الإنتقام، لكن كيف؟ نظر حوله... شباب يهتفون محتجين، رافضين منددين، والعرق يتصبب من جباههم وفورة الغضب تقودهم نحو مصير مجهول، وفي الحال انضم إليهم وفي لحظة حازمة، امتطى كتفي زميل له ورفع عقيرته بالهتاف لما كان يتمتع به من صوت جهوري جميل، صدح صوته، كان محمّلا بالبغض والحقد والكراهية والانتقام، كان ينفس عن غضب مكبوت لازمه طيلة أيام حياته، وآن الأوان ليعلنه، بعد أن نكأ ولده جرحه، انطلق صوته عاليا... عاليا... قنصته رصاصة استقرت في صدره، ابتسم رغم ألمه، ابتسم لأنه أصبح جديرا أن يكون أبا لطفل شهيد، سبقه بإعلان شهادته، وعلمه كيف يكون المرء شهيدا، ابتسم لأن هناك من سيتلو العبارة على روحيهما (المجد والخلود لشهدائنا الأبرار) أغمض عينيه بعد أن سُجي على الأرض التي عشقها، فاضت روحه... هو لن يكون

آخر الشهداء، ولكن يوما ما، يلوح في الأفق، نتأمله وننتظره، حتما سيحث خطاه إلينا، في هذا اليوم سنحتفل بشهيدنا الأخير... ثم نبتسم.

***

صدر للمؤلفة المسرحيات التالية:

١- شباك الحلوة ٢- كاهن المعبد

٣- مقتل شهرزاد ٤- الشحاذ حاكما

٥- عازف الناي ٦- مدينة الرهان

٧- حكاية توت ٨- الرباط الأزلي

٩- والمجموعة القصصية مطاردة النمال

*نشر إلكتروني:

١٠- (وكر الأفاعي) كتاب يحتوي على أربع مسرحيات.

١١- (دموع من رمال) مجموعة قصصية.

==*=*=*

*للتواصل مع المؤلفة (maysoonhanna897@gmail.com)

الفهرس

رقم الصفحة	الموضـــــــوع	
٥	**المهمشون**	المهمش الأول
١١		المهمش الثاني
١٧		المهمش الثالث
٢١		المهمش الرابع
٢٤		المهمش الخامس
٢٨		المهمشة السادسة
٣١		المهمش السابع
٣٨		الأديب
٤٥		معركة الأيادي
٤٩	**ذكريات طبيب**	سقوط الهالة (١)
٥٣		مراوغة (٢)

فاجعة	٥٧
التباس	٦٠
الموهوب	٦٢
المحاذير	٦٧
الفقيد	٧٠
دموع من رمال	٧٤
كابوس	٨٠
الربان	٨٣
العجوز	٨٥
المقعد	٨٨
آخر الشهداء	١٠٢
إصدارات المؤلفة	١٠٦

(*) تمّ كتاب – دموع من رمال(*)